الباب الثانى

شعراء الفتوح

الفصل الأول

شعراء متنوعون

١ ـ الفتوح تذكى جذوة الشعر العربي

قال ابن سلام: «جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، تشاغلوا عنه بالجهاد، وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته»[١].

وهذا القول الذى يجانب الصواب لم يقتصر على ابن سلام وحده، وإنما تابعه فيه كثير من الدارسين حتى استحال عصر صدر الإسلام لدى بعضهم إلى عصر ركود أدبى، ولدى بعض المعتدلين منهم إلى عصر هدوء أدبي.

والحقيقة الواضحة أن الإسلام لم يحمل العرب على الانشغال عن الشعر وروايته، لأنه لم يكن يملك هذا لو أراد، ولم يكن له أن يريد هذا الأمر مع ما للشعر من سلطان على نفوس العرب، ذلك أنه علم قوم لم يكن لهم علم غيره[٢].

وكل ما كان من آثار لمجيء الإسلام على الشعر أنه حاول تغيير مهمته فى الحياة العربية وتزويده بقيم وأهداف جديدة تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية فأخذ يخلع طوابعه الخاصة على الشعر، ليتحول من ألهية تتلهى بها طبقة معينة من الناس إلى وسيلة نافعة، تُسخَّر من أجل مجموع المسلمين، وتكون بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة، وتعمل فى سبيل غاياتها ومثلها.

ومن ثم كان على الشعر أن يطرح عنه مفهومه القديم، وأن يتقيد بقيم معينة، فرضها الدين الجديد، وأن يستهدف غاياته الرفيعة إذا أراد أن يكون له وجود فى هذه الحياة الجديدة، وإلا كان من الخير أن يصمت.

---

(١) طبقات الشعراء ، ص١٠.

(٢) ابن سلام ، ص١٠ ، العمدة ج١ ص٩.

ومادامت الحياة العربية بجميع مظاهرها قد تعرضت للتغيير فإن الشعر يصبح فاقدا لكل قيمة، إذا لم يتجاوب معها فيصورها من كافة أقطارها، فى ظلال القيم الجديدة التى أصابت حياة الناس بالتغيير، والإسلام فضلا عن كونه رسالة دينية ليس إلا نمطا من أنماط السلوك وأسلوبا من أساليب التفكير، ولا بد له من ثم أن يترك آثاره على الحياة الفنية.

هكذا كان على الشعر أن يكون قوة ذات أثر فى نطاق من حقائق الدين وغاياته، وإلا كان من الطبيعى أن يجد الناس طلبتهم فيما جاءهم به الدين الجديد من آيات كتابه المعجز، وأحاديث رسوله وخطبه، وأكد هذه القيمة التى اكتسبها الشعر أن الإسلام حركة فكرية لها وجهها الأدبى، بل إن الإعجاز الأدبى كان أكثر جوانبها تألقا وإغراء للعرب واجتذابا لهم، وأن طبيعة العقل العربى وما جاء به الدين الإسلامى من تعاليم لم يفسحا مجالا ما للون من ألوان الفنون الأخرى، فلم يكن أمام تلك الطاقات المختزنة فى النفس المسلمة إلا أن تجد لها مسربا فى الشعر لا تعدوه، طالما يتجاوب مع حياتها الجديدة.

وكان للصراع بين الدين الجديد وأعدائه أثر كبير فى تأكيد قيمة الشعر العربى وتحديد مهمته فى تثبيت دعائم الفكرة الإسلامية، ودحض افتراءات أعدائها. فقد انطلق مشركو مكة يغرون شعراءهم بالإسلام وبنبيه، وكان لذلك أثره فى نفس النبى ﷺ وصحابته المسلمين، نتيجة إحساسهم بخطر هذا السلاح فى تعويق الدعوة والتنفير منها وتشويهها، وإفساد عمل دعاتها، وبخاصة بين أولئك الذين لم تستقر فى قلوبهم وعقولهم بعد الملامح الجديدة للعقيدة، وأولئك الذين يعطون لهذا الشعر الذى يصدر عن مكة وعن شعراء من قوم النبى ﷺ قيمة خاصة.

وكان ضروريا ــ والأمر كذلك ــ أن يخوض الشعر الإسلامى معركة عنيفة ضد أعداء الإسلام، خلع عليه فيها نبى الإسلام كل تأييده وحفزه وتشجيعه، فندب الشعراء وأهاجهم واستحثهم، وكان ينتشى لمنافحتهم ويدعو لهم[1]، وهذا كله يعنى تقدير النبى ﷺ لخطر الشعر وقيمته، لأن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، وشعر المسلمين أشد على الكفار من نضح النبل. ويتجلى تقدير النبى ﷺ للشعر فيما خلعه على الشعراء الذين تقيدوا بالقيم الإسلامية وما حباهم به من عطفه، كما يتجلى فى موقفه من شعراء قريش

(١) العمدة ج١ ص١٢.

الذين بلغت قسوتهم فى الحملة عليه وعلى الإسلام حد أن توعدهم بالقتل، وقتل بعضهم فيما بعد[1].

وكل ما نريد أن نوضحه أن الإسلام لم يقف من الشعر موقفا عدائيا ولم يحاول أن يحمل العرب على الانشغال عنه، وإنما كان موقفه منه كموقفه من كل مظاهر الحياة المتخلفة عن الجاهلية، إذ حاول أن ينفى عنها طوابعها التى لا تتلاءم مع الدعوة الإسلامية، ثم يدفعها للانسياق فى إيحاءات الحياة الإسلامية ومتطلباتها، فى نطاق من تعاليم الدين الجديد.

فلم يكن من هدف الدين الإسلامى، ولا من هدف رسوله ﷺ فى شيء أن يحول بين العرب وبين الشعر، وإنما كان الهدف أن يوضع الشعر موضعه، وأن يخطط له بما يجعله ذا قيمة فاعلة فى حياة المسلمين، لما كان يدركه من عمق الصلة بين حياة العرب وبينه.. وأنه لن يستطيع أن يقصر حياتهم الفنية على ما كان من إعجاز القرآن وترتيله، ومن ثم ــ فقد آثر أن يحوله عن وجهته الجاهلية إلى هذا الأفق الجديد، فحرض الشعراء، ودعا لهم وأغراهم على السير فيه، بينما ضرب على أيدى الشعراء الذين ظلوا يعيشون بمفاهيم جاهلية، يتخذونها وسيلة لمحاربة الإسلام والتنفير منه، وإثارة الفتن والعصبيات، وإيذاء النفوس، وإشاعة البغضاء بين المسلمين.

حمل الإسلام حملة شعواء على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم تجلت فى سورة الشعراء، وفى أحاديث الرسول ﷺ، فصورهم فى صورة بشعة، ولم يستثن منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا، وهؤلاء هم الذين نافحوا عن الدين، وذادوا عن العقيدة.

ولم يكن من اليسير أن تتغير مفاهيم الشعر وقيمه بين ليلة وضحاها، فهذه القيم قد رافقت الشعر أجيالا طويلة. وليس فى الإمكان طرحها دفعة واحدة واستبدالها بقيم إسلامية تحل محلها، وإنما احتاج الأمر إلى بعض الوقت الذى تبعد فيه الحياة تدريجيا عن رواسب الماضى، وتترسب هذه القيم الجديدة فى النفوس رويدا رويدا.

---

(١) العمدة ج١ ص٧.

وكان طبيعيا أن يخفت صوت الشعراء وإن لم يصمت، فقد ظل الشعراء المؤمنون يقومون برسالتهم فى رد سهام المشركين وحماية العقيدة ونصرتها، إذ كانوا أعمق فهما لرسالة الإسلام، وأسرع استجابة لها دون غيرها.

وخفت صوت الشعر أمام المثل الإسلامية الجديدة، التى تختلف تمام الاختلاف عن المثل الجاهلية التى اعتاد الشعر تصويرها والتحدث عنها، وفقد الآن حرية التعامل بقيمها وصورها وألوانها وأجوائها، وفقدت هى ــ من جانب آخر ــ طلاوتها، لأنها لم تعد ذكريات فاعلة عزيزة فى تكوين الفرد والجماعة الجديدة داخل إطارها الجديد، وإن ظلت جزءا من ماضيه، يأنف منه ويزدريه.

ووجد الناس ما ينشدون من هذه المثل الإسلامية فى القرآن الكريم، وإدمان القراءة فيه وتفهمه، وازداد صوت الشعر خفوتا عندما أخذ اهتمام الناس ينتقل من قراءة القرآن وتفهمه ككتاب مقدس للدعوة الإسلامية إلى كتاب أدبى، يفوق بروعته وبيانه ما ورثوه من تليد الشعر، ويتجاوز سحره طاقة البشر ويطرح وراءه كل الشعراء المجيدين.

فهذه طائفة من صحابة الرسول ﷺ تتبدل من عنايتها بالشعر وروايته وحفظه عناية بالقرآن فائقة، وإدمانا فى النظر الممعن فيه، وهذا لبيد يستعيض عن الشعر بسورة البقرة، وهذا على بن أبى طالب ينصح لأبى الفرزدق بأن يحفظه القرآن، وكأنما يصرفه عن الشعر صرفا[1].

وهكذا استقر فى أذهان المسلمين أن أساليب القرآن تستطيع أن تسع منازعهم النفسية العميقة، وأن توحى بكثير من ألوان البيان المماثل، فوجدوا فى القرآن بديلا فنيا غلب الشعر على منزلته، حتى لقد صار شاعر الرسول ﷺ ينشد فى المسجد فلا يجد من يستمع إليه، ويضطر الزبير أن يهيب بهم ليستمعوا له[2]. فقد كان الناس عن ذلك فى شغل بالقرآن الذى استأثر بهم لأن فيه ما يهيج العصبيات والحزازات التى قضى عليها الإسلام.

---

(١) الأغانى (ساسى) ج١٩ ص٩.

(٢) العمدة ج١ ص١٠.

شغل المسلمون إذن عن الشعر. ففيم الخلاف مع ابن سلام الذى قرر: أن الإسلام شغل العرب عن الشعر؟ إن الخلاف ليس فى هذا القول، وإنما فيما يقرره من أن شغل العرب كان بالجهاد وبغزو فارس والروم.

فإن الحقيقة كما قررناها أن شغل المسلمين عن الشعر لم يكن إلا نتيجة لمحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشعر ليتفق وتعاليمه ومثله، وأن الشعر عجز عن أن يقدم للناس ما وجدوه فى القرآن فخفت صوته، وإن لم تغض منابعه.

ثم كانت الفتوح الإسلامية التى أذكت جذوة الشعر العربية وأطلقت الألسن من عقالها، وكأنما كان الشعر الرئة التى تنفس خلالها ما اختزن فى النفوس العربية خلال هذه الفترة، فقد فتحت الفتوح أمام الشعر مجالات واسعة، ووضعت أمام الشعراء مواقف شبيهة بالمواقف التى ألفوها وألفها الشعر فى الجاهلية، وإن اختلف الهدف بين المواقف اختلافا شاسعا، إلا أنها قد أزالت حرج الشعراء، وفتحت أمامهم أبوابا كان طرقها محظورا فى ظلال الفكرة الإسلامية، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ما داموا جميعا يذودون عن العقيدة، ويبذلون الأرواح رخيصة فى سبيلها. أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحرافا عن حدود المهمة التى نيطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبيات التى كان يجب أن تختفى ويعفى على آثارها.

لا ضير فى أن يشعر الفرد المسلم بما لقبيلته من مجد مؤثل فى موطن بذلها فى سبيل العقيدة، كما فعل نافع بن الأسود بن قطبة فى الفخر ببلاء تميم فى مقتلة أسد بالقادسية:

وقال القضاة من معد وغيرها	تميمك أكفاء الملوك الأعاظم
هم أهل عز ثابت.. وأرومة	وهم من معد فى الذرا والغلاصم
وهم يضمنون المال للجار ما ثوى	وهم يطعمون الدهر ضربة لازم
لذلك كان الله شرف فر	سانها فى الزمان الأول المتقادم
وحين أتى الإسلام كانوا أئمة	وبادوا معدا كلها بالجرائم

إلى هجرة كانت سناء ورفعة ... لباقيهم فيهم وخير مراغم

فجاءت بهم فى الكتائب نصرة ... فكانوا حماة الناس عند العظائم

فصفوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا ... وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم

لدى غدوة حتى تولوا تسوقهم ... سيوف تميم كالليوث الضراغم[1]

وهل كان بإمكان شاعر أن يقول مثل هذا القول فى المسجد ـ مثلا ـ وعمر بن الخطاب يمسك بأذن حسان بن ثابت ليعنفه على ما قال من شعر، شبهه بأنه رغاء كرغاء البعير[2].

فالأمر فى رأينا لا يخرج عما كان من موقف الفروسية العربية من الإسلام، فقد وجدت فرصتها فى الفتوح بعد أن ضاقت بها الحياة الإسلامية فنهت عن أن يقاتل المسلم أخاه، فإن فعل فقد قاتل تحت راية عمية، وإن قتل قتل قتلة جاهلية. كذلك كان الشعر، ووجد فرصته فى الفتوح، حيث يفاخر الشاعر ببلائه، وينهى به إلى امرأته أو صاحبته، ويهجو الكفرة أعداءه، ويقذع فى هجائهم دون تحرج أو ضير.

فكما كانت الفتوح متنفسا للعرب المفطورين على الفروسية والنجدة والشجاعة فطرحوا فيها ما كان من بأس فيما بينهم، كذلك كانت الفتوح متنفسا للعرب المفطورين على الشعر والفصاحة طرحوا فيها كل ما كان محظورا عليهم فى مواقف أخرى.

ولا شك فى أن ارتباط الفتوح بفكرة الجهاد التى تمثلت بلورة نورانية تخطف قلوب المؤمنين، كان له أثر كبير فى ترسيب المثل الإسلامية فى نفوس المجاهدين من الشعراء، فانطلقت ألسنتهم بما رأينا من الشعر الذى واكب عمليات الفتوح خطوة خطوة.

وجدير بالذكر أن الشاعر المسلم فى الفتوح قد مارس ألوان الشعر التى كانت محظورة عليه قبل الفتح فى ظلال فكرة جديدة، لم تكن القبلية بحال من الأحوال، وإنما كانت فكرة الجماعة الإسلامية الكبيرة، فوقف منها موقف المدافع، وانبرى يشيد

---

(١) الإصابة ج٦ ص٢٦٢.

(٢) أغانى دار الكتب، ج٤ ص١٤٤.

بانتصارها على أعدائها، وحنت من وجدانه محل القبيلة الصغيرة، التى كان يفنى فيها وفى الذود عنها. وأصبح يتغنى بعواطف الجماعة الإسلامية وبوجدانها، بعد أن كان يغنى عواطف القبيلة الضيقة، وصارت له شخصية فردية ذات أبعاد وحدود وملامح بارزة داخل الجماعة الكبيرة، بعد أن كان خيطا رفيعا فى نسيج القبيلة العريض.

وقد شغلت الفتوح الإسلامية المسلمين عن كل شيء فى حياتهم إلا الفروسية والشعر. ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن الفتوح لم تقم إلا بهذين المظهرين من مظاهر الحياة العربية. فكانت الفروسية سببا فى نجاح الفتح، وكان الشعر نتيجة للفتوح.

وألقت الفتوح بهذا عبئا جسيما على عواتق المجاهدين، استهلكت جهودهم، وشغلت حياتهم فلم تتسم لحظة بالهدوء أو بالاستقرار، وشغلوا بالانسياح فى الأرض ــ بعد أن ضاقت بلادهم بألق إيمانهم ــ يتدفقون كتائب تتبعها كتائب إلى العراق وخراسان والشام ومصر وأفريقية فيصيبون توفيقا أى توفيق يغرى غيرهم، فيتدفقون سيلا مندفعا فى تيار الفتح، وأضحت جزيرة العرب مخزنا كبيرا للرجال، يذخر حينا، ويخلو فى أكثر الأحيان. والمجاهدون يتعرضون لمشقات الاستنفار والتجيش، وأهوال القتال وعنف المعارك، ومع ذلك فإن الغايات الشريفة التى استشرفوها لم تقض على منازع الفن الشعرى فى نفوسهم.

حقا لم تكن حياة العسكر تسمح لهم بالفترات التى يخلدون فيها إلى أنفسهم، ويخلون إلى ذواتهم ساعة أو بعض ساعة، يصبون فيها عواطفهم ومشاعرهم فى أبيات تقصر أو تطول، وحقا كانت ظروف القتال لا تكاد تترك لهم لحظة هادئة، فهم بين أن يكونوا مدافعين أو مهاجمين، يتحولون من ميدان إلى ميدان، ويتركون معركة ليستقبلوا معركة. ولكنهم ــ على الرغم من كل هذه القسوة والقلق والتوزع ــ نفوس تشعر وتحس، وتأمل وتحذر، وتنتصر وتهزم، فتفرح أو تشقى، وهذه المشاعر لا بد أن تجد متنفسا لها، وتلك الطاقات النفسية لا بد أن تجد مسربا ينفس عنها، ويحمل مواجدها وأشواقها.

وهذه البيئات الجديدة التى لم يألفوها ألا تثيرهم؟ وهذه المناطق النائية ألا تذكرهم بأهليهم وأحبائهم وديارهم؟ وهذه المشاهد الغريبة ألا تؤثر فيهم؟ ومتى شغلت الحرب العربى عن الشعر؟ ألم يقترن الشعر بالحرب عند العرب على طول الأزمان والحقب؟ ألم

يجعلوا للقتال والنزاع لحنا معينا يوقعون عليه ضرباتهم، ويضعونه موضع الموسيقا فى الجيوش الحديثة.

لم يفارق الشعر العرب لحظة واحدة فى الفتوح، ذلك أنه كان أداة للتحميس والدفع والاستنفار، ينطلق المجاهدون على إيقاعه الهادر إلى النصر والشهادة.

وآية هذا أن الإسلام أراد أن يغير مظاهر الحياة العربية جميعها، ومنها الشعر، فحدد له قيما ومهمة تتفق وتعاليمه، ولم يستطع الشعر أن يواكب هذه القيم دفعة واحدة، فخفت صوته إلى حين حتى كانت الفتوح الإسلامية فأذكت جذوة الشعر العربية، وأطلقت ألسنة الشعراء، وأودت بكل حرج، ووضعت أمامهم مواقف يمارسون فيها ألوان الشعر التى قيدها الإسلام، وفتحت أمامهم آفاقا واسعة، وتجارب حافلة بألوان من العواطف الجياشة والمشاعر الملتهبة.

٢ ـ شعراء قدماء

خفت صوت الشعر، ولكنه لم يصمت تماما، فقد كان هناك شعراء استجابوا لدعوة الإسلام سراعا، واستبدلوا بمفاهيم الشعر الجاهلية مفاهيم إسلامية جديدة، واستطاعوا أن يتقيدوا بمهمة الشعر التى حددتها المثل الإسلامية، وأن يكتسبوا لأنفسهم أسلوبا أفادوه من التأثر بالقرآن الكريم، كما فعل أولئك الذين جندوا للتصدى لشعراء قريش. بينما ظلت طائفة منهم لم تسعفهم سلائقهم الشعرية بما طبعت عليه من الإلف للتقاليد الجاهلية المتأصلة بعيدة عن التأثر بهذه المثل، ومن ثم لم يتمكنوا من أن يستبدلوا بها غيرها فكان أن سكتوا عن قول الشعر، حتى كادت ينابيعه أن تغيض فى وجدانهم.

وكان هناك بطبيعة الحال طائفة أخرى، اختلط فيها الماضى بالحاضر، فمزجت بين ما كانت فيه وما أقبلت عليه. وقد وجد هذان النوعان فى الفتوح الإسلامية منطلقا لهم ومتنفسا، فشارك عدد كبير منهم فيها، واحتفظت لنا الروايات بأخبارهم وأشعارهم، دون أن تؤثر فى ذلك ظروف الفتح التى طمست صورة الشعراء المغمورين، الذين لم يكن لهم شهرة بالشعر من قبل.

أما هؤلاء الذين نضجوا وذاع صيتهم وشهرتهم قبل الفتوح فلا نجدهم قد تأثروا بذلك إلا قليلا، فشعرهم وإن كان أبياتا مفردة أو مقطعات مبتسرة يتلقفه الرواة

والإخباريون والمهتمون بالشعر، متأثرين فى ذلك بما لهؤلاء الشعراء من ماض فنى، دون نظر منهم إلى قيمة الشعر ذاته، التى اكتسبها من الظروف التى صدر خلالها.

وقد شارك فى الفتوح عدد كبير من الشعراء القدامى من أمثال عمرو بن معديكرب الزبيدى، وعبدة بن الطبيب، وأبى محجن الثقفى، وربيعة بن مقروم الضبى، وأبى ذؤيب الهذلى، وعمرو بن شأس الأسدى، وقيس بن مكشوح المرادى، وعروة بن زيد الخيل الطائى والنابغة الجعدى، والشماخ والحطيئة.

وليس شك فى أن شعر هذه الطبقة من شعراء الفتح يختلف عن شعر غيرهم من الشعراء، فهو شعر ناضج برغم الظروف التى شهدت مولده، وهو يمتاز عن بقية شعر الفتح بامتداد نفسه نسبيا، كما يظهر فيه بوضوح غلبة الفخر الفردى على الفخر بجماعة المسلمين، وكأن الشاعر الناضج يحس بنفسه إحساسا أقوى من إحساس غيره من الشعراء المغمورين، بل أقوى من إحساسه بالمثل الدينية فى أكثر الأحيان.

كما أن شعرهم يتميز بميزة خاصة وهى أن فرصة الظن فى انتحاله نادرة، إذ هناك ما يخشاه المنتحل لو عزا انتحاله إلى شاعر شهير، فإنه بذلك يضع نفسه موضع الشبهة إذا ما تكلف الدارسون بإعادة الأمور إلى نصابها بالتحليل والتدقيق، ومقارنة المنتحل بشعره المعروف له.

وقد يعجب الدارس حينما يجد هذه الطبقة الممتازة من الشعراء على كثرة عددها لم تخلف فى شعر الفتوح آثارا تتناسب معها فى الكم والكيف. حتى إننا إذا أردنا أن نتخذ أحدهم مثالا للشعراء القدامى الذين أسهموا فى الفتوح لم نجد أحدا منهم جديرا بالدراسة، لقلة ما خلف فى ظروف الفتح. ولسنا نستطيع أن نعزو قلة شعرهم إلى ضياعه، لما سبق أن قررناه من أن شهرتهم قد حفظت شعرهم من الضياع، فوصل إلينا كاملا، كما وصلت إلينا أخبارهم بتفاصيلها الدقيقة.

فهذا عبدة بن الطبيب[1] تذكر الروايات عنه أنه شهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز. وله فى ذلك آثار مشهورة[2] وأنه شهد الواقعة التى كانت عقب القادسية[3]، كما

---

(١) أخباره فى الأغانى ساسى ج١٨ ، ص١٦٢، والشعر والشعراء ج٢ ص٧٠٥، الإصابة ج٥ ص١٠١ ، المفضليات ص٢٦٨.

(٢) ابن قتيبة ج٢ ص٧٠٥. (٣) المفضليات ص٢٦٨.

يروى أنه كان فى جيش النعمان بن مقرن، وأنه شهد معه حرب الفرس فى المدائن[1]، ثم لا نجد من هذه الآثار المشهورة إلا قصيدة واحدة، وإن كانت طويلة جدا، إذ تبلغ نيفا وثمانين بيتا، تتنازعها هذه الروايات جميعا بين أن تكون قد قيلت فى وقعة بابل ــ التى كانت بين المثنى وهرمز على مبعدة خمسين ميلا من المدائن[2] أو أن تكون قد قيلت فى وقعة المدائن ذاتها، أو فى نهاوند، حينما غزا مع النعمان بن مقرن. وقد توهم صاحب الإصابة أنها المدائن، متابعة فى ذلك لصاحب الأغاني.

ونحن نميل إلى أن تكون هذه القصيدة قد قيلت فى وقعة نهاوند، التى وقعت بعد تمصير الكوفة التى يشير إليها الشاعر.

ويجد الباحث نفسه متحيرا أمام هذه القصيدة الرائعة، ولا ترجع حيرته إلى روعتها وإلى امتداد نفسها فى مثل هذه الظروف القلقة فحسب، وإنما للحيرة أسباب أخرى.

فجميع الروايات متفقة على أن هذه القصيدة من قصائد الفتح الإسلامى وأنها قيلت فى إحدى الوقائع التى شهدها الشاعر ضد الفرس، والقصيدة تشير إلى ذلك فى بعض أجزائها، من مثل قول عبدة فى مطلعها:

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول؟

حلت خويلة فى دار مجاورة ... أهل المدائن فيها الديك والفيل

يقارعون رءوس العجم ضاحية ... منهم فوارس لا عزل ولا ميل

فخامر القلب من ترجيع ذكرتها ... رس لطيف ورهن منك مكبول

رس كرس أخى الحمى إذا غبرت ... يوما تأوبه منها عقابيل

وللأحبة أيام تذكرها ... وللنوى قبل يوم البين تأويل

إن التى ضربت بيتا مهاجرة ... بكوفة الجند.. غالت ودها غول[3]

---

(١) ج١٨ ص١٦٣، الإصابة ج٥ ص١٠١.

(٢) راجع صحيفة ٢٩ من هذا البحث.

(٣) المفضليات ٢٦٨/ ٢٧٠.

وإلى هذا الحد لا موجب للحيرة، فالشاعر يتحدث عن صاحبته التى هجرته ــ أو هجرها ــ ونزحت إلى الكوفة، حيث جاورت المدائن التى فيها الديوك والفيول وحيث المسلمون يقارعون فوارس الفرس. وقد عاوده حبه القديم كأنه مس الحمى فى مبتدئها ومنتهاها. وصاحبته هذه التى استوطنت الكوفة لا تشعر به، فقد نسيت هواه، وكأنما غالته غول.. إلى هنا لا موجب للحيرة.

ثم ينتقل الشاعر من بعد إلى وصف ناقته ورحلته بعد أن تخلص فرمى نفسه بالضلال، إذا سمح للصبابة أن تشغله عن عمله، واستغرق وصفه لناقته ستة عشر بيتا، وصفها فيها بعظم الخلقة والسرعة والقوة، فى لغة جاهلية نحتت نحتا، وتعرض فى أثناء ذلك إلى وصف ما صادفه فى الرحلة من القطا، ثم عاد إلى وصف الناقة، فشبهها بثور وحشى، وصفه بأنه بعيد ما بين القرنين محجل مكحول العين. ووصف القانص الذى يترصده وزوجه تنتظره وقد نام فى حجرها صغير كالقرد، وهذا القانص يغرى كلابه الضارية المدربة، ثم يصور المعركة التى نشبت بين الثور والكلاب تصويرا رائعا برغم ما يكتنف ذلك من صعوبة اللغة وتقعرها. ووصفه بعد ذلك خروج الحيوان متأثرا من المعركة، يستقبل الريح كأنه السيف المسلول، ويصور إعياءه بعد أن صرع الكلاب طعنا فى صدورها فأنهك، لكنه يستشعر الظفر والانتصار فيجرى، وآثار المعركة بادية عليه، ودماء ضحاياه تلوث وجهه، وقد تدلى لسانه عن شمال شدقه، ويجرى فيثير جريه النقع، ولكنه يبرك ثانية حتى يكل فرجه من ارتطامه بالحصى. وقد استغرق الشاعر فى وصف هذه المعركة عشرين بيتا، انتقل بعدها إلى وصف منهل دل عليه رفاقه فى الرحلة، وكان الماء قد نفد فوردوا، وقد ران عليهم النعاس من الإجهاد. ثم قالوا حد الظهيرة، وبعد ذلك رفعوا أرديتهم. وصاروا يعدون اللحوم للطعام ما بين ورد وأشقر، وفار باللحم للقوم المراجيل، وأكلوا ثم مسحوا أيديهم فى مناديل من أعراف خيولهم الجرد المسومة. ويستغرق هذا المشهد سبعة أبيات، يتحدث فى آخرها عن الخيول، ثم يعود كرة أخرى إلى وصف العيس التى ارتحلوا عليها.

ويعود بعد ذلك إلى حديث يذكرنا بالأبيات التى أسلفنا، ذلك أنها تنصرف فيما انصرفت فيه تلك الأبيات من تصوير الجهاد، وهى كذلك رقيقة فى لغتها حيث يقول:

نرجو فـواضل رب سيبـه حسن وكل خـير لـديه فهـو مـقبـول

رب حبـــانا بأمـوال مـــخـولة وكل شيء حـبـاه الـله تخـويل

والمرء سـاع لأمـر لـيس يدركـه والعيش شح وإشـفاق وتأميل[1]

ثم انصرف عبدة بن الطبيب إلى وصف جرأته ومـغامراته التى أفزع بها الوحوش فى هدأتها، وطروقـه القفار والأهوال بجـواده المتكامل الخلقة، الذى تميـزه سيقـانه القوية السريعة المقـتدرة. واستغرق هذا المشـهد تسعة أبيات راح يصف بعـدها طروقه لحوانيت الخمارين، مع صياح الديك، ومعه رفـيق ضليل مثله أعداه بلذته وخرقه، جاد إذا حزبه الأمر، مـخالط للهو واللذات. وفى هذا الحانوت بسـطت لهما الفرش المزينة بالتـصاوير الرائعة للدجاج والأسد، فى جو رائع، حيث ترسل ذبالة ضوئها فترى الزق معدا، وآثار العراك باقـية، والأكـواب موضوعـة، والأباريق مصفـوفة، والريحـان مجهـزا، وأكوابا مترعة، والزبد طاف فوقها، والشواء يسعى به مـتمنطق عجول، حيث أعد الخوان وفوقه التوابل، واصطبح الشـاعر بما شاء من طـيب الراح، وتابع الشرب صرفـا وممزوجة على الريحان، وعلى شعر مذهب لآنسة جـيداء، صوتها ترتيل، تغدو على الشرب وتروح، فتلهيهم تارة وتارة أخرى يحاصرونها، ويلقون عليها بردهم وسراويلهم إعجابا.

هل أمام الدارس إلا أن يقف محيرا أمام هذه القصيدة الرائعة؟

وعلام الحيرة؟ إن تلك الأبيات التى أشرنا إليها قد قيلت فى الفتح، وما عداها لا يمكن أن يكون من شـعر الفتح، أو من الشـعر الإسـلامى ألبتة والقـصيـدة إذن جزءان واضحان ومـختلفان فى مدلولهـما وصياغتـهما، أحدهما إسـلامى، والآخر جاهلي. وليس ببعيد أن يكون أحد الرواة قد مزجـهما فى قصيدة واحدة على هذا الشكل الذى نراها عليه، وروتها به الروايات.

والذى يجعلنا نميل إلى هذا الرأى ما نراه من شبه فى الصـياغة الفنية لهذه الأبيات الإسلامية فى القصيـدة، وفى قصيدته الإسلامية التى يوصى فيها ابنه ويقول فى ختامها:

---

(١) المفضليات/ ٢٨٦.

ولقد علمت بأن قصرى حفرة ... غبراء يحملنى إليها شرجع

فبكى بناتى شجوهن وزوجتي ... والأقربون إلى ثم تصدعوا

وتركت فى غبراء يكره وردها ... تسفى على الريح حين أودع

فإذا مضيت إلى سبيلى فابعثوا ... رجلا له قلب حديد أصمع

إن الحوادث يخترمن وإنما ... عمر الفتى فى أهله مستودع

يسعى ويجمع جاهدا مستهترا ... جدا وليس بآكل ما يجمع

حتى إذا وافى الحمام لوقته ... ولكل جنب لا محالة مصرع

نبذوا إليه بالسلام فلم يجب ... أحدا وصم عن الدعاء الأسمع[1]

فهذه سهولة إسلامية، ومعان تحمل ظلال الأفكار الإسلامية، شبيهة بحديثه عن العيش فى أبيات لاميته. فنفس الروح الحكيمة جلية فى الموضعين هذين، ولا يمكن أن يكون هو الذى يتحدث عن اللهو والشراب والطرب فى الإسلام، وهو الذى يقول فى نصيحة بنيه:

أوصيكم بتقى الإله فإنه ... يعطى الرغائب من يشاء ويمنع

وببر والدكم وطاعة أمره ... إن الأبر من البنين الأطوع[2]

وعدا تلك الأبيات التى تتحدث عن خولة ورحيلها إلى الكوفة، وحرب الفرس، وابتغاء فواضل الله لا نعرف لعبدة شعرا فى الفتح.

واشترك فى الفتوح من الشعراء القدامى، ربيعة بن مقروم الضبي[3]، من شعراء مضر المعدودين، وهو مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وعمر طويلا فى

(١) المفضليات ٣٠١ ، ٣٠٢.

(٢) المفضليات / ٢٩٧.

(٣) أخباره وشعره فى الأغانى (ساسى) ج١٩/ ٩٠ ، والخزانة ج٣ ص٥٦٤، والشعر والشعراء ١/ ٢٧٩، والإصابة ج٢/ ٢٢٠، والمفضليات ٢٦٨، ٣٥٥، والحيوان ج١ ص٣٤٧، ج٦/ ٤٢٧، ج٧/ ٢٦٣.

الإسلام[1]. وتذكر الروايات أنه شهد القادسية وجلولاء[2]، كما تذكر أنه كان سجينا لدى كسرى المشقر قبل الإسلام[3]. كما يذكر ابن حجر صاحب الإصابة أن له شعرا فى القادسية[4].

وكل ما يروى له من شعر فى الفتوح: لاميته المطولة، التى يتحدث فيها عن معركة الفيول. ونرانا مضطرين إلى أن نقارن بين هذه القصيدة ولامية عبدة بن الطبيب التى أشرنا إليها. ذلك أن ظروفهما تكاد تكون واحدة، وهى تسير على هذا النمط:

شماء واضحة العوارض طفلة ... كالبدر من خلل السحاب المجتلي

وكأنما ريح القرنفل نشرها ... أو حنوة خلطت خزامى حومل

وكأن فاها بعد ما طرق الكرى ... كأس تصفق بالرحيق السلسل

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... فى رأس مشرفة الذرا متبتل

جآر ساعات النيام لربه ... حتى تخدد لحمه مستعمل

لصبا لبهجتها وحسن حديثها ... ولهم من ناموسه يتنزل[5]

وبعد هذه المقدمة الغزلية ــ يبدو الشاعر وكأن غزله ساقه إلى تذكر ما كان فى صباه، فيقارن بين ماضيه وحاضره، وتصيبه الحسرة إذ طعن فى السن، وغزا الشيب لمته، وانحنى ظهره، وأضحى يدب دبيبا كمن يخاتل صيدا عن نفسه، فيتذكر ما كان يصبى الغوانى من صباه وميعته.. فيقول:

بل إن ترى شمطاء تفرع لمتي ... وحنا قناتى وارتقى فى مسحل

ودلفت من كبر كأنى خاتل ... قنصا ومن يدبب لصيد يختل

---

(١) الأغانى (ساسى) ج١٩ ص٩٠.

(٢) ابن قتيبة ج١/ ٢٧٩ ، والخزانة ج٣ ص٥٦٤.

(٣) الأغانى ج١٩/ ٩٠ ، والإصابة ج٢ ص٢٢٠.

(٤) الإصابة ج٢ ص٢٢٠.

(٥) الخزانة ج٣ ص٥٦٥، ٥٦٦، الأغانى ساس ج١٩/ ٩٠

فلقد أرى حسن القناة قويمها كالنصل أخلصه جلاء الصيقل

أزمان إذ أنا والجديد إلى بلي تصبى الغوانى ميعتى وتنقلي[1]

ويدلف من ثم إلى الفخر بمهارته وبراعته فى القتال، وشهوده الحرب، وطراد الخيل بفرس سليم أوظفة القوائم هيكل، سباق لأوابد الجياد، يجرى منه الحميم، ويهوى بصاحبه هوى الصقر، وينتقل إلى الحديث عن جسارته هو، فهو مقدام، لا يكاد يسمع دعوة للنزال حتى يكون أول نازل، وهو جماع للمال، ودخال لأبنية الملوك، وهو لا يغالى فى هذا القول، فشر ما قاله المرء ما لم يفعله، وهو أريب بارع يجيد خدع النزال، فقد يكون خصمه حنقا، يغلى صدره بعداوته، فإذا به يحاوره ويداوره حتى يتبين منه غرة فيكويه على نواظره. يقول:

ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

ولقد جمعت المال من جمع امرىء ورفعت نفسى عن لئيم المأكل

ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل

ولرب ذى حنق على كأنما تغلى عداوة صدره كالمرجل

أرجيته عنى فأبصر قصده وكويته فوق النواظر من عل[2]

وتروى هذه الأبيات الأخيرة مضافا إليها أبيات أخرى فى بعض الروايات، تقول:

ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل

وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس بيضها كالاعبل

متسربلى حلق الحديد كأنهم جرب مقارفة عنية مهمل[3]

وهذه الأبيات هى التى يمكن أن تكون قد قيلت فى الفتوح، ويبدو من إفرادها برواية مختلفة عن القصيدة لاختلاف مدلولاتها عن بقية القصيدة أن القصيدة جاهلية فيما

(1) الخزانة ج٣ ص٥٦٥، ٥٦٦، الأغانى ج٩١/٩٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الحيوان ج٧ ص٢٦٣، المفضليات ص٢٦٨.

عدا هذه الأبيات، فهو ينزلق بعد ذلك إلى الحديث عن مغامراته اللاهية من أجل الشراب والعبث، فهو عتيق فى هذا اللهو، يفتن صديقه الزميت حتى ليجعله يضرب بعذل العذال عرض الحائط فيتبعه، ويعصاهم ويطيع لذته. وصديقه شريف الحسب، يذهب إليه الشاعر فينبهه فى الصباح أو قبل أن ينبلج الصباح ليأتيا حانوتا من حوانيت الخمارين، حيث يصطحبان فيه معتقة لم يقتل عنفوانها الماء، ولا يزالان يسقطان على هذه الحوانيت حتى تفرغ حاجتهما إلى اللذة. وعندما يتشى الشاعر تهاجمه الذكريات فيتحسر على سنوات عمره المائة، التى أضاعها سنة إثر سنة، والدهر يبلى كل جدة مبذل. فيقول:

وأخى محافظة عصى عذاله ... وأطاع لذته معم مخول

هش يراح إلى الندى نبهته ... والصبح ساطع لونه لم ينجل

فأتيت حانوتا به فصبحته ... من عاتق بمزاجها لم تقتل

صهباء إلياسية أغلى بها ... يسر كريم الخيم غير مبخل

ومعرس عرض الرداء عرسته ... من بعد آخر مثله فى المنزل

ولقد أصبت من المعيشة لينها ... وأصابنى منه الزمان بكلكل

فإذا وذاك كأنه ما لم يكن ... إلا تذكرة لمن لم يجهل

ولقد أتت مائة علىّ أعدها ... حولا فحولا إن بلاها مبتلى

فإذا الشباب كمبذل أنضيته ... والدهر يبلى كل جدة مبذل[1]

ويخوض بعد ذلك فى فخر قبلى صرف بكرم قومه وقِراهم الضيف، وتأدية المعروف فى غير تنحل، وشجاعتهم وحلولهم الثغور المخوفة، وإعانتهم لذى الغرم، ومنعهم الجار، ورفعهم لذكرهم فى كل محفل، وببذلهم عن سعة، ويشيد بخطباء قومه الفصحاء، وسعة حماهم، وقيامهم بحمولة المقل.

---

(١) الخزانة ج٣ / ٥٦٦.

وهكذا تبدو واضحة جاهلية هذه القصيدة التى تذخر بالمدلولات الجاهلية، من الغزل الحسى، إلى وصف الفرس، والإشادة بجسارة الشاعر إلى سرد مغامراته الليلية فى علب الليل، إلى الفخر القبلى الصرف بالكرم والشرف والسؤدد، بينما تبدو الأبيات التى أفردتها بعض الروايات بين هذه المدلولات الجاهلية ــ غريبة وقلقة فى موطنها، مما يؤكد ما ذهبنا إليه، من أن هذه القصيدة قد صنعت هى الأخرى عن عهدين مختلفين، ومزجتهما الروايات بهذه الصورة، وخلافا لهذه الأبيات التى تتحدث عن معركة الفيول، والتى نرجع أنها قيلت فى القادسية[1]، لا نعرف لربيعة بن مقروم الضبى شعرا فى الفتوح.

ومن الشعراء القدامى الذين شهدوا الفتوح: **أبو محجن الثقفى**، ذلك الفارس المعدود فى أولى البأس والنجدة[2]، وصاحب البلاء يوم أرماث بالقادسية. وتذكر الروايات خلافا كبيرا فى خروجه إلى الغزو، فيذهب بعضها إلى أنه حد فى الخمر مرارا، ولم ينته فنفاه عمر بن الخطاب إلى جزيرة فى البحر، وأرسل معه حرسا تمكن من الخلاص منه، ثم التحق بسعد بن أبى وقاص فى القادسية[3]. بينما تذهب بعض الروايات إلى أنه خرج غازيا مع سعد لحرب الأعاجم، فكان يؤتى به شاربا، فحبسه سعد فى القادسية[4]، كما تروى أخبار أخرى فى سبب نفيه مختلفة عن هذه الأسباب، التى أوردنا من أنه هوى امرأة يقال لها «شموس» واحتال فى النظر إليها وتغزل فيها فاستعدى زوجها عليه الخليفة، فنفاه، وهرب من حارسه ليلحق بسعد[5].

ولكننا لا نقبل هذه الروايات جميعا، فى خروجه، وكيفية التحاقه بسعد، فمن المؤكد أنه شهد معارك قبل القادسية، وروى له فيها شعر، كالذى أوردناه فى يوم الجسر، وكان قد شهد هذه الواقعة مع بنى أبيه من ثقيف، فى جند أبى عبيد الثقفي[6].

---

(١) الحيوان ، ج١ ص٣٤٧.

(٢) أخباره وشعره فى الأغانى (ساسى) ج٢١/١٣٦، ابن قتيبة ج١ ص٣٨٧، الخزانة ج٣ ص٥٥٠، والإصابة ج٧ ص١٧٠.

(٣) الأغانى ج٢١ ص١٣٨.

(٤) الأغانى ج٢١ ص١٤٠.

(٥) الأغانى ج٢١ ص١٣٨.

(٦) الأغانى ٢١/١٤١، والخزانة ج٣ ص٥٥٠ ، وابن قتيبة ج١ص٣٨٧.

ومهما تختلف الروايات فى أمر خروجه للغزو فإنها تتفق فى مجموعها على رواية حبسه بالقادسية، واستعطافه زوج سعد أن تطلقه، حتى يشترك فى القتال بشعر يكشف عن ولوعه بالحرب وبلائه فيها، كما تتفق جميعها على أفاعيله العجيبة يوم أرماث، حتى ليدخل عمله فى إطار الأسطورة.

ويروى أنه لما عاد من القتال ليضع رجليه فى القيد كما تعهد لزوج سعد قابلته امرأة فى الطريق فظنته لعجلته فارا منهزما، فأنشأت تقول:

من فارس كره الطعان يعيرني ... رمحا إذا نزلوا بمرج الصفر

فأجابها أبو محجن:

إن الكرام على الجياد مبيتهم ... فدعى الرماح لأهلها وتعطري[1]

ولما عاد ورجع إلى محبسه أنشأ يقول:

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا

وأكثرهم دروعا سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

وأنا رفدهم فى كل يوم ... فإن جحدوا فسل بهم عريفا

وليلة قادس لم يشعروا بي ... ولم أكره لمخرجى الزحوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائي ... وإن أطلق أجرعهم حتوفا[2]

وتروى فى الخزانة أبيات لم ترد فى ديوانه عن بلائه فى القتال، تقول:

لما رأينا خيلا محجلة ... وقوم بغى فى جحفل لجب

طرنا إليهم بكل سهلبة ... وكل صافى الأديم كالذهب

وكل عراصة مثقفة ... فيها سنان كشعلة اللهب

وكل عضب فى متنة أثر ... ومشرفى كالملح ذى شطب

(١) المرجع السابق.

(٢) الأغانى ج٢١ ص١٤٠.

وكل فضفاضة مضاعفة من نسج داود غير مؤتشب
لما التقينا مات الظلام ودا ر الموت دور الرحى على القطب
فكلنا يستكيض صاحبه عن نفسه، والنفوس فى كرب
إن حملوا لم نرم مواضعنا وإن حملنا جثوا على الركب(١)

وهى أبيات فريدة فى وصف أسلحة المسلمين، وتصوير بلائهم، لا نجد لها شبيها فى كل ما لدينا من شعر الفتوح.

كما تروى له أبيات قالها فى محبسه لزوج سعد، عندما سألته: فيم حبسه سعد فأجاب والله ما حبسنى فى حرام أكلته ولا شربته، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني. فينفثه أحيانا، ولأنى قلت:

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
ليروى بخمر الحص لحمى فإنني أسير لها من بعد ما قد أسوقها(٢)

وهذه رواية نميل إليها، وإن كنا نلاحظ عليها شيئا، فغير معقول أن يعاقر أبو محجن الخمر فى ميدان القتال، كما ذهبت إلى ذلك بعض الروايات، كما أنه لا يمكن أن نتصور أن يحبس سعد شاعرا لأبيات قالها، وإن كنا نعتقد أن أبا محجن صادق فيما قاله لزوج سعد، من ممارسته للخمر فى الجاهلية وإقلاعه عنها فيما بعد ذلك.

والذى نراه أن سعدا قد حبس الشاعر فى حقيقة الأمر لسبب خفى وإن كان احتج بشعره فى الخمر ليدينه به. فأما هذا السبب فهو شغب أبى محجن مع غيره من وجوه القوم قبل بدء القتال فى القادسية، ونسبتهم سعدا إلى الجبن، عندما قعد عن قيادة المعركة بسبب ما ألم به من المرض. ومما يؤكد هذا: اقتران حبس الشاعر بقصته مع سلمى زوجة سعد وأرملة المثنى، فى نفس الليلة التى نسبت فيها سلمى هى الأخرى قعود

(١) الخزانة ج١ ص٥٥٦.
(٢) الأغانى ج٢١ ص١٤٠.

زوجها إلى الجبن، وما كان من ندائها «وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم» فلطمها سعد وأغضبها، فقالت: أجبنا وغيرة؟ وباتت مغاضبة له ليلة أرماث وفيها أطلقت أبا محجن ثم قصت خبره معها على سعد بعد أن صالحها[1]. والطبرى يصرح فى رواية له بأن سعدا حبس أبا محجن وسواه لأنهم اختلفوا عليه وشغبوا[2].

أما ما يذكر عن حده فى القادسية وشعره الذى يصر فيه على الخمر ففى رأينا أنه نتيجة لما أحاط بقصة أبى محجن من التأثيرات الشعبية، والتزيد فى أخباره كما سنرى فيما بعد.

ولنا أن نلاحظ على شعر هؤلاء الشعراء القدامى فى الفتوح برغم قلة ما وصل إلينا منه قلة التأثيرات الإسلامية، كما يتضح فيما عرضنا له من شعرهم، وما سنعرض له لدى دراستنا لنموذج منهم وهو: عمرو بن معديكرب الزبيدي. على حين نجد بعض الشعراء القدامى قد امتلأ شعرهم بهذه التأثيرات مثل النابغة الجعدى، وعروة بن زيد الخيل، وقد ادخرنا الحديث عنهما إلى حين، عندما نعرض للطوابع الإسلامية فى شعر الفتوح.

وفضلا عن هؤلاء وأولئك نجد بعض الشعراء القدامى الذين اشتركوا فى الفتح لم يخلفوا لنا شيئا من شعرهم فى هذا السبيل، مثل الحطيئة والشماخ.

٣ ـ شعراء أنطقتهم الفتوح

أذكت الفتوح الإسلامية جذوة الشعر العربية، التى خبت حينا، وقد وجدت وقودا غذاها فذكت، وانطلق الشعر على ألسنة المحجمين من الشعراء المتحرجين، فقد فتحت لهم الفتوح أبوابا كثيرا يدلفون خلالها من قواقعهم، إلى حيث يمارسون التعبير عن ذواتهم، فى ظلال فكرة الجهاد التى اجتذبهم لألاؤها فاندفعوا إلى الميادين، حيث وضعوا فروسيتهم وشاعريتهم فى خدمة الفكرة الإسلامية.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، فإن شعراء آخرين بدأوا يظهرون على مسرح الشعر، وإن كانت أدوارهم لا تسمو إلى أدوار الشعراء القدامى مع أن شعرهم أكثر

---

(١) الأغانى ج٢١ ، ص١٤٠.

(٢) الطبرى ج٥ ص٢٢٨٨، ابن سلام ٢٢٦.

فاعليـة فى أداء مهمة الشـعر فى المعركة، ويدهش البـاحث أمام كثرة الشـعراء من هذا القبيل، حتى ليـخيل إليه أن الفاتحين جميعـا قد استحالوا شعراء فى الفـتوح، خاصة فى الميدان الشرقي.

وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ينقسمون فى تصورنا قسمين، أولهما: طائفة من الشعراء المغـمورين، الذين لم يذع لهم شعر فـيما قبل اشتـراكهم فى المعارك، ولم يذع ذكرهم أيضا قبل ذلك. وقد وجد هذا القبيل فـرصته فى الفتوح، إذ سارت بشعره الركبان، وسجل اسمه فى ذاكرة العرب. وظهرت أسماء جديدة طالعتنا فى كتب التاريخ والمغازى لا بريق لهـا ولا ألفة لدينا، كالأسود بـن قطبة التميـمى، والقعقاع بن عـمرو، وأخيه عـاصم، وحسان بن المنذر بن ضرار الضبى، والأعـور العبدى الشنى، ونافع بن الأسود بن قطبـة التميمى، وضرار بن الخـطاب، وعمرو بن مالك الزهرى، وكـثير بن الغريزة النهشلى، وغيرهم.

كان هؤلاء شعـراء قليلى الحظ من الشهرة والذيوع، ولم يكن لهم فى مـاضيهم الفنى رصيد يمكن لشخصياتهم الأدبيـة أن تبقى فى الميدان نامية الجوانب وأن يحافظ على ذواتهم من الانطماس والضياع، هذه المحافظة التى توفرت لشخصيات الشعراء القدامي.

وبرغـم هذا فإن دور هؤلاء الشـعراء فى شعـر الفتوح هو الدور الرئيـسى، فكثرة الشـعر الذى يروى فى الفـتوح ينسب إليـهم. وقد عـبروا عن ذواتهم، ومـشاعـرهم، وأحاسيـسهم فى المواقف المختلفة التى مرت بهم تعـبيرا بسيطا، أصيلا، حـارا وصادقا، ويلاحظ الدارس: أن شعرهم مقطعات صغيرة متماسكة، تعبر عن موقف واحد، شأن شعـر الفتوح كله، وتعتـبر برغم قصـرها هذا أكثر كمـالا وتماسكا من غيرها من شـعر الفتوح.

والقسم الثانى من هؤلاء الشعراء يشكلون ظاهرة مهمة جديرة بإنعام النظر، وهم أولئك الشعراء الذين لم يكونوا فى الأصل يرتبطون بالشعـر فى قليل أو كثير، ذلك أنهم لم يكونوا ينظمـون الشعر أو يعنون بـه ولكنهم حملوا السـلاح وخاضوا المعـارك، فإذا بنفوسـهم تفيض بالبيت أو بالبـيتين أو بالمقطوعـة القصيرة تسـرية وتنفيسـا وحثا لنفـوسهم وتحميسـا. وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا إستجابة حرة

وطليقة لتجاربهم وتأثرهم بمواقفهم النفسية الحافلة بالمشاعر والعواطف. ولذا يغلب عليه الرجز العفوى الحار، الذى يصدر عنهم وهم يستقبلون خصومهم، وكأنهم يدقون طبول الحرب مشجعين لأنفسهم، أو وهم يتنادون، كل ينادى قبيلته أو جماعته.

وأكثر هؤلاء الفاتحين المعبرين عن أنفسهم من الجند العاديين، الذين لم يكن متوقعا منهم أن يعبروا بالشعر عن أنفسهم، ولكنهم أمام روعة الأحداث، والتهاب المشاعر، وجيشان العاطفة لم يملكوا أن يصمتوا، ففاض الشعر على ألسنتهم صادرا من وجدانهم فى عفوية حارة وصادقة، وقد جنت على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم شخصيتهم المتكورة، فاختلط بينهم شعر كثير. ولم ينسب إلى أصحابه قدر كبير منه، فإذا نحن أمام عبارات تتردد لا تحمل دلالة على الشاعر، وإن كانت تجعلنا نشعر أنه شعر شاعر من هؤلاء العاديين من الجند، كـ: قال أحد المسلمين، أو قال أحدهم، أو ارتجز راجز، وهكذا.

ولحسن الحظ حفظت لنا الروايات أسماء بعض هؤلاء، من مثل: أبى أحيحة القرشى، وبشر بن ذريح الثعلبى، وعصام بن المقشعر، وبشر بن ربيعة، والأشعث بن عبدالحجر بن سراقة، وجندب بن عمار، وعلياء بن جحش العجلى، والأعرف بن العلم العقيلى، وغيرهم كثيرون. ولعل فى أبناء الخنساء الأربعة، وما جاش على ألسنتهم من رجز دافئ فى القادسية خير مثال لهؤلاء. وكذلك هؤلاء المحاربون الجرحى الذين اجتمعوا حول نخلة القادسية يناجونها وقد رقت مشاعرهم وهفت نفوسهم إلى أهليهم وديارهم شعرا بسيطا معبرا، وإن ضاعت أسماء بعضهم، فيروى البيت الأول لبجير (كذا)، والآخر لرجل من تميم، والثالث لغيلان، أخى بنى ضبة، وهكذا.

وقد أدت ظروف القتال وتشابه ظروفهم وكثرتهم إلى انطماس شخصياتهم فيما يروى لهم من شعر، واختلاط نسبة المقطعات بينهم.

فمثلا يروى صاحب الأغانى مقطوعة رائعة، تفخر ببلاء صاحبها يوم القادسية على هذا النمط:

أنخت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص علىّ أمير

وسعد أمير شره دون خيره ... وخير أمير بالعراق جرير

وعند أمير المؤمنين نوافل ... وعند المثنى فضة وحرير

تذكر هداك الله وقع سيوفنا ... بباب قديس، والمكرّ عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحى طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة ... دلفنا لأخرى كالجبال تسير
ترى القوم فيها أجمعين كأنهم ... جمال بأجمال لهن زفير[1]

وواضح أن هذه الأبيات لجندى من جنود القادسية، يفضل فيها جرير بن عبدالله البجلى على سعد بن أبى وقاص، ويشيد بالمثنى، وكأنه يزرى بسعد. وتروى هذه الأبيات لبشر بن ربيعة الخثعمى، صاحب جبانة بشر بالكوفة، وصديق عمرو بن معديكرب[2].

ولكن صاحب الإصابة ينسب بعض هذه الأبيات إلى آخر يدعى: بشر بن ربيعة ابن أبى رهم الجهمي[3]، ويروى البيت الأول منها لشاعر يدعى: بشر بن ربيعة بن منارة الخثعمي[4]، على حين ينسبها صاحب فتوح البلدان إلى بشر بن ربيعة الخثعمى، مضيفا إليها عدة أبيات، فى مطلعها تقول:

ألم خيال من أميمة موهنا ... وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها ... حجازية إن المحل شطير
ولا غرو إلا جوبها البيد فى الدجى ... ومن دوننا رعن أشم وقور[5]

ويضيف إليها ياقوت ـ بعد البيتين الأولين هذا البيت:

فزارت غريبا نازحا جل ماله ... جواد ومفتوق الغرار طرير[6]

---

(١) أغانى (ساسى) ج١٤ ص٣٩.
(٢) نفس المرجع.
(٣) الإصابة ج١ / ١٧٧.
(٤) نفس المرجع
(٥) البلاذرى ص٢٦٢.
(٦) ياقوت ج٤ ص٧.

كـذلك يلاحظ الدارس: أن جل هؤلاء الشـعراء من النـزارين، وليس بينهم إلا فيما ندر عرب من أهل اليـمن، وأنهم جند العراق وما وراء العراق فى الغالب الأعم، وهذا أمر متوقع، فنحن نعرف للنزارين طبـعا شعريا واستعدادا متهيئـا للشعر، لا يتيسر لعـرب الجنوب، مما جعل الشـعر يتـدفع على ألسنتـهم كاسـتجـابة تلقائيـة لما يحسـون ويشعرون.

وهناك شيء يلفت الـدارس لفتـا، فـإن بعض هؤلاء الذين انطلق الشـعـر على ألسنتهم ولم يكن لهـم به عهد أو كلف أمراء مـشهورون، وقـواد عظام، لم نكن نتوقع إطلاقا أن يعبروا عن أنفـسهم هذا التعبير الفنى، من مثل خـالد بن الوليد، وعياض بن غنم، والمثنى بن حارثة، وجـرير بن عبدالله، وطليـحة بن خويلد، والربيل بن عـمرو، وسعد بن أبى وقاص، والنعمان بن مـقرن وأخيه نعيم، والأحنف بن قيس، وهاشم بن عـتبـة، وزهرة بن حـوية، والحكم بن عمـرو التـغلبى، وسلمى بن القين، والبـراء بن عازب، وعبـدالله بن عبدالله بن عتبـان، وأبو ليلى بن فدكى، وغيرهم، وهم جمـيعا قواد، أو أمراء للجند، أو أصحاب أمداد وألويـة. فما إن يتوجه أحدهم على رأس لواء لفتح بلدة أو كورة حتى تجيش بنفسه مشاعر الفداء والتضحية، وما إن تسقط فى يده حتى يستشعر مشاعر النصر والغبطة، فـينطلق الشعر على لسانه فى تعبير تلقائى بسيط، ولكنه يكشف عن ذاته وما يعتلج فيها من أحاسيس.

وهكذا يخيل للدارس أن الفاتحين جمـيعا قد استحالوا شـعراء، حتى لم يبق أحد منهم لم يسهم فى تصوير الفتوح الإسلامـية. وسوف نرى نموذجين لشاعرين من شعراء الفتح، أحدهمـا شاعر قديم والآخر شاعر مـغمور، خلقت منه الفتوح شـاعرا ناضجا، حتى ليستحق أن يلقب بشاعر الفتح الإسلامى.

***

الفصل الثانى

عمرو بن معديكرب الزبيدى

١ ـ حياته وإسلامه وخروجه للجهاد

هو فارس زبيد، وشاعرها قبل الإسلام وبعده، ويكنى: أبا ثور، واسمه: عمرو ابن معـديكرب الزبيدى، وينتـهى نسبـه إلى زبيد. فـهو قحطانى الأصـل، ويدعوه أبو عبـيدة: فارس اليمن، ويقـدمه على زيد الخيل، فى الشـدة والبأس[١]. وهو ابن خالة الزبرقان بن بدر، وخال قيس بن مكشوح المرادى، الشاعر الفارس[٢].

ويبدو أن أباه كان سيدا وجيها فى قومه، ومن ذوى الرياسة والزعامة فيهم، وكان معـروفا بالنجدة والفـروسية، وأمـه امرأة من جرم، مـن قضاعـة، من بنى الحارث بن كعب، وكانت قد ارتحلت مع قومها إلى بنى زبيد، هربا من ثأر لبنى الحارث[٣].

ونشأ عـمرو فى حجـرها نشأة لاهية عـابثة، واشتـهر فى صبـاه بالانصراف إلى الشراب والنهم، فلم يتوسم فيه أبوه خـيراً، وأطلق عليه: لقب المائق، أى الأحمق الذى لا رجاء فيه، فكان أن عرف بمائق بنى زبيد[٤].

وتعرض عمرو فى شبـابه لتجربة صعبة، صقلته وعجمت عـوده، وحققت أخيرا ذاته، فرسخت مكانته فى قومه، وهى تجربة شبيـهة بالتجربة التى صهر خلالها أسود بنى عبس وامرؤ القيس.

فقـد حدث أن شنت قبيلة خـثعم غارة على بنى زبيـد، فأخذ أبوه يجمع قـومه استعدادا لصـدها، وجاء عمرو إلى أخته فقـال: «أشبعينى فإن غدا الكتـيبة»، وجاء أبوه فأخـبرته ابنته بما كـان من عمرو، فكأنما اسـتكثر عليـه أبوه اهتمامـه بالكتيبـة فى غده، واستعداده لهـا، فقال: هذا المائق يقول ذلك سليه ما يشبعـه فقال: فرق من ذرة، وعنز رباعية، وكان الفرق يومئذ ثلاثة آصاع. فصنع له ذلك، فأتى عليه جميعه ثم نام.

---

(١) الأغانى (الساسى) ج١٤ ص٢٤.

(٢) المرجع السابق وابن قتيبة ج١ ص٢٣٢.

(٣) الخزانة ج٣ ص٤٢٢.

(٤) الأغانى ج١٤ ص٢٤.

وفى الصباح أتتهم خثعم مغيرة، واشتد القتال بين القبيلتين، واستيقظ عمرو من نومه فنظر فرأى لواء أبيه مرفوعا، فركن إلى النوم، وبعد فترة رفع رأسه ثانية فإذا بلواء أبيه قد نزل، فهم مندفعا يريد المعركة. وفى الطريق لقى أباه منهزما، فقال له: انزل عن فرسك فاليوم ظلم، فقال له أبوه: إليك يا مائق، ولكن جمعا من العشيرة نصحوا معديكرب بأن يخلى بينه وبين طلبته، فإن قتل كفى مؤنته، وإن ظهر كان شرفا له، فألقى أبوه إليه سلاحه، فركب وظل يرمى خثعما بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كر عليهم، وفعل ذلك مرارا، فحملت زبيد، وهُزمت خثعم، واستحق عمرو يومئذ أن يلقب بفارس زبيد[1]. ويصبح عمرو وكأنما اشترى نفسه وكرامته بهذه التجربة التى غيرت وضعه فى قومه، وجعلته فارسهم بلا منازع.

وأخذت أخباره تذيع، ووقائعه ومغامراته تترى بعد ذلك، حتى أصبح معلوما أنه لا يخشى أحدا من أبطال العرب وفرسانهم، وكان يقول فى ذلك: «لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها، ما لم يلقنى حراها أو عبداها، فأما الحران: فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وأما العبدان: فأسود بنى عبس يعنى عنترة والسليك بن السلكة وكلهم قد لقيت فعامر سريع الطعن على الصوت، وعتيبة أول الخيل إذا غارت، وآخرها إذا آبت، وعنترة: قليل الكبوة شديد الجلب، والسليك بعيد الغارة[2]».

وقد تحدث عنه فرسان العرب حديثا شبيها بحديثه عنهم، فعندما سئل ماذا تقول فى العباس بن مرداس؟ قال: أقول فيه ما قال في:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئوا زبيدا فقد أودى بنجديها عمرو[3]

وقد هيأت له خلائقه الجسمانية إلى جانب ما يتمتع به من شجاعة وجرأة وحب للمغامرة أن يكون الفارس الذى لا يفضل عليه فارس من العرب[4]، ذلك أنه كان ذا

(١) الأغانى ج١٤ ص٢٤، ٢٥.
(٢) الأغانى ج١٤ ص٢٧.
(٣) المرجع السابق.
(٤) الإصابة ح٥ ص٢.

قوة خارقة وضعته بين الأبطال الأسطوريين، فرويت عنه فى ذلك روايات طريفة، تدل على شدته وضخامته ونهمه، من مثل ما يروى: من أن رجلا جاءه وهو واقف على فرس له بالكناسة بعد أن جاوز المائة فقال الرجل فى نفسه: لأنظرن ما بقى من قوة أبى ثور، وأدخل يده بين ساقيه وبين السرج، وفطن عمرو فضمهما عليه وحرك فرسه، فجعل الرجل يعدو مع الفرس، وهو لا يقدر أن ينتزع يده، حتى إذا بلغ منه، قال عمرو: يا ابن أخى، مالك؟ قال: يدى تحت ساقك، فخلى عنه وقال له: يا ابن أخي: إن فى عمرك لبقية[1].

وكان عمر بن الخطاب إذا رآه يقول: الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا، تعجبا من عظم خلقه[2]. وتروى له حادثة مع عمر تدل على أن نهمه لم يفارقه فى شيخوخته، إذ انطلق مرة إلى المدينة وجاء عمر فى مسألة، فإذا به يغدى الناس، وقد جفن لعشرة عشرة، فأقعده عمر مع عشرة فأكلوا ونهضوا ولم يقم عمرو، فأقعده مع تكملة عشرة، حتى تم له الأكل مع ثلاثين، ثم قام فقال: «يا أمير المؤمنين إنه كانت لى مآكل فى الجاهلية منعنى منها الإسلام، وقد صررت فى بطنى صرتين وتركت بينهما هواء فسده»، قال عمر: «يا عمرو عليك حجارة من حجارة الحرة فسده به»[3]. وكانت له أخلاق البدوى فى شجاعته ونجدته، مع غير قليل من الإسراف فى تصوير بطولته إلى درجة الكذب، وتروى فى ذلك قصة طريفة وهي: أنه كان يذهب مع الأشراف إلى الكوفة يتناشدون الأشعار، ويتذاكرون أيام الناس كعادتهم، وقف مرة إلى جانب خالد بن الصقعب النهدى، وأقبل عليه يحدثه ويقول: أغرت على بنى نهد، فخرجوا إلى مسترعفين بخالد بن الصقعب وهو يتقدمهم، فطعنته طعنة فوقع، وضربته بالصمصامة حتى فاضت روحه، فقال له الرجل: يا أبا ثور «أنا مقتولك الذى تحدث»، فقال عمرو: «اللهم غفرا، إنما أنت بمحدث فاستمع إنما نتحدث بمثل هذا وأشباهه لنرهب هذه المعدية!»[4].

---

(١) الأغانى ج١٤ ص٢٠.

(٢) الأغانى ج١٤ ص٢٧

(٣) الأغانى ج١٤ ص٣١.

(٤) نفس المرجع .

وهكذا تحاول الروايات دائما أن تصور عمرا كاذبا، والحقيقة: أنه ليس كذلك على طول الخط، وإنما كان يكذب فقط حينما يتفاخر، فيغالى فى وصف شجاعته وجرأته. وقد سئل فى ذلك خلف الأحمر فقال: كان عمرو يكذب باللسان ويصدق بالفعال[1].

ويبدو أنه بعد ما تخلص من لقب المائق تخلص من بعض غروره وتهوره أيضا، فقد بدأ بذلك حياة جديدة. ويروى: أن الصمة بن بكر أغار على قومه فاستاق إبلهم، وسبى ــ فيمن سبى ــ أخت عمرو، وكانت تدعى ريحانة، فتبعه عمرو، ومعه أخوه عبدالله، وفى الطريق رجع عبدالله وتبعه عمرو وحده يناشده أن يخلى عن أخته فلم يستجب له، ولما يئس رجع وهى تناديه بأعلى صوتها يا عمرو، وهو يقول وصوتها يرن فى أذنه:

امن ريحانة الداعى السميع ... يؤرقنى وأصحاب هجوع

سباها الصمة الجشمى غصبا ... كأن بياض غرتها صديع

وحالت دونها فرسان قيس ... تكشف عن سواعدها الدروع

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع[2]

ويذكر: أن ربيعة بن مكدوم، أحد فرسان العرب المشهورين طعن عمرا ذات مرة فألقاه عن فرسه وأخذها، ثم لقيه مرة أخرى فضربه، فوقعت الضربة فى قربوس فرسه فقطعته، حتى عض السيف بجسد الفرس، فلم يكن من عمرو إلا أن سالمه وتركه وانصرف[3]. فلا عجب إذا رأينا هذا الفارس المقدام يتحدث عن فراره ونجاته، حذر الموت تعقلا منه، وإيثارا للسلام، فيقول:

ولقد أجمع رجلى بها ... حذر الموت وإنى لفرور

ولقد أعطفها كارهة ... حين للنفس عن الموت هرير

كل ذلك منى خلق ... ولكلّ أنا فى الروع جدير[4]

(١) نفس المرجع.
(٢) الأغانى ١٤، ص٣١.
(٣) نفس المرجع.
(٤) ابن قتيبة ج١ ص٣٣٤.

ويفسر هذا التعقل الذى صار لعمرو تسامحه وميله للمسالمة، وإيثاره للخير، فقد قتل أخوه عبدالله فآثر أن تدفع إليه ديته، ولكن أخته اعترضت وقالت فى ذلك شعرا تعيره فيه، وتعرض به:

فإن أنتم لم تثأروا بأخيكم ... فمشوا بآذان النعام المصلم

ودع عنك عمرا إن عمرا مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم[1]

وهذه المسالمة ليست من قبيل الجبن فى طبيعة عمرو بالذات، وإنما هى نتيجة لرزانة حكيمة وتعقل، وبسبب من هذا التعقل وذلك الذكاء حث عمرو ابن أخته قيس بن مكشوح المرادى على أن ينطلق معه ليريا أمر محمد، حينما انتهى إليهما، ولما عصاه قيس ركب هو فى وفد من زبيد، وانطلقوا إلى المدينة بعد أن قال فى مخالفة قيس شعرا يلومه فيه:

وكان لقاؤه للنبى ﷺ سنة تسع للهجرة على أرجح الأقوال[2]، ثم ما نلبث حتى نسمع بارتداده ومتابعته للأسود العنسى، وبقوله فى هجاء فروة بن مسيك المرادى، الذى كان على صدقات مراد:

وجدنا ملك فروة شر ملك ... حمار ساف منخره بقذر

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر[3]

ونسمع بعد ذلك بأن أبا بكر رضى الله عنه عقد لواء للمهاجر بن أمية المخزومى، لقتال جنود العنسى، ولقتال عمرو بن معديكرب، وقيس بن مكشوح المرادى، ورجالهما. وبدافع من الطمع انضم للأسود العنسى، فلما قتل لم تهدأ ثورة أنصاره، بل جعل فرسانهم يجوبون البلاد فيما بين نجران وصنعاء، لا يأوون إلى أحد، ولا يأوى إليهم أحد. وانتهز عمرو الفرصة، فحاول اقتناص السلطان من طريق الثورة، ما دام قد فشل فى ذلك بالانضمام إلى العنسى.

---

(١) نفس المرجع.

(٢) الاستيعاب ص٣٥١.

(٣) الأغانى (الساسى) ج١٤ ص٢٦.

وعندما استعان فيروز بأبى بكر على قيس بن يغوث وعزز أبو بكر مكانته راح قيس وعمرو يعيثان فى البلاد فسادا. ولكنهما لم يلبثا أن تخاصما وتهاجيا. وأدركهما مجيء المهاجر، وأيقن أهل اليمن جميعا أن ثورتهم مقضى عليها لا محالة، فانتهز عمرو الفرصة كدأبه، وأراد أن ينجو بنفسه فهاجم حليفه، الذى كان متفقا معه على لقاء المهاجر، وأخذه إليه أسيرا، وعند ذلك قبض المهاجر عليهما معا، وبعث بهما إلى أبى بكر ليرى فيهما رأيه، بعد أن أخذ سيفه المسمى بالصمصامة، وأوثقه.

ونظر الصديق إلى عمرو وقال له: «أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور، لو نصرت هذا الدين لرفعك الله؟» فقال عمرو: «لا جرم لأفعلن، ولن أعود». فأخلى أبوبكر سبيله ورده إلى عشيرته، ليعود بعد ذلك إلى المدينة حيث يسيره الخليفة إلى الشام[1].

وقد ميزت هذه الخلة الانتهازية فى طباع عمرو أخلاقه جميعها، فإذا هو نفعى ونهّاز، وترتب على ذلك رقة دينه التى لازمته طول حياته، فلم يكن له من دينه ما ينهاه عن المحرمات فى الإسلام. ويروى عنه فى هذا الصدد أن صديقه عيينة بن حصن نزل عليه زائرا فى محلة زبيد، بعد بناء الكوفة، وكان عيينة نديم شرابه فى الجاهلية، فوقف ينادى ببابه «أى أبا ثور.. اخرج إلينا» فخرج إليه مؤتزرا مرحبا بقوله: «أنعم صباحا أبا مالك»، فقال عيينة: «أو ليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا.. السلام عليكم؟» فقال عمرو: «دعنا مما لا نعرف، انزل فإن عندى كبشا سياحا..» فنزل، وعمد عمرو إلى الكبش فذبحه، وألقاه فى قدر وطبخه، حتى إذا نضج جاء بجفنة عظيمة، فثرد فيها، وأكفأ القدر عليها، فقعدا فأكلاه.. ثم قال لضيفه: «أتشرب اللبن، أم ما كنا نتنادم عليه فى الجاهلية؟» قال عيينة: «أوليس قد حرمها الله عز وجل علينا فى الإسلام؟» قال عمرو: «أنت أكبر سنا أم أنا؟» قال: «أنت»، قال: «فأنت أقدم إسلاما أم أنا؟» قال: «أنت»، قال: «فإنى قد قرأت ما بين دفتى المصحف فما وجدت لها تحريما، إلا أنه قال: فهل أنتم منتهون؟ فقلنا: لا، فسكت وسكتنا». فقال عيينة: «أنت أكبر سنا وأقدم إسلاما»، فجلسا يتناشدان ويشربان، ويتذاكران أيام الجاهلية حتى أمسيا، فلما أراد عيينة الانصراف قال

(١) أسد الغابة ج٤ ص١٣٣.

عمرو: «لئن انصرف أبو مالك بغير عطاء إنها لوصمة عار»، فأمر بناقة عظيمة له، وبأربعة آلاف درهم، ورفض عينة المال، وأخذ الناقة وانصرف عليها ينشد:

جزيت أبا ثور جزاء كرامة ... فنعم الفتى المزدار والمتضيف

قريت فأكرمت القرى وأفدتنا ... تحية علم لم تكن قط تعرف

وقلت: حلال أن ندير مدامة ... كلون انعقاق البرق والليل مسدف

وقدمت فيها حجة عربية ... ترد إلى الإنصاف من ليس ينصف

وأنت لنا ـ والله ذى العرش ـ قدوة ... إذا صدنا عن شربها المتكلف

يقول أبو ثور: أحل حرامها ... وقول أبى ثور أسد وأعرف[1]

وهكذا ـ يؤكد: أن الإسلام لم يتعمق روحه، كما لم يعن هو بتعمقه، فظل على الخمر والتنادم عليها بذكر أيام الجاهلية وما يعرف ويألف من كلماتها، فى الوقت الذى يرفض فيه تحية الإسلام التى لا يألفها. ثم هو ينتحل على الدين فتوى يحلل بها حراما بغير تحرج متظرفا، وكأنما يخدع نفسه.

وربما نتساءل عن السبب الذى من أجله أبقى عليه المهاجر فلم يقتله، وهو أحد رءوس الفتنة فى ثورة اليمن وارتداد أهله، وعن السبب الذى من أجله أبقى عليه الصديق كذلك. فلا ريب فى أن المهاجر خشى ما قد يترتب عليه قتله لعمرو، وهو يعرف مكانته فى قومه. ولا ريب أيضا فى أن أبا بكر رأى بثاقب رأيه ما يمكن أن يحققه عمرو إذا ما كان سيفا من سيوف الإسلام، وتجلى ذلك فى معاتبته، ودعوته الصريحة إلى نصرة دين الله.

وبرغم أن عمرا أبلى فى نصرة هذا الدين بلاء رائعا، فقد ظل رقيق الدين طوال حياته، لا يرجع عن اتباع هواه، ولا يرتدع، فظل يعاقر الخمر، ولكن ذلك لم يكن ليسلبه قدره فى الانتصار للدين، حتى ليقول عنه سعد بن أبى وقاص حينما وقع فى حد الخمر ذات مرة: «لقد كان له يوم القادسية موطن صيم الفناء شديد النكاية للعدو» فقيل لسعد: فقيس بن مكشوح، فقال: «هذا أبذل لنفسه من قيس»[2].

---

(١) الأغانى ج١٤ ص٢٩.

(٢) الأغانى ج١٤ ص٣١.

ولم يكن عمرو شديد النكاية بالعدو لقوة إيمانه بالإسلام، ولا لاعتقاده بوجوب الذب عنه، واكتساب أرض جديدة له، ولدعوة العالمين إليه. وإنما كان قوى الإيمان بنفسه فحسب، مخلصا لماضيه وحده، ولبطولاته السابقة، فهو حينما يبذل نفسه لا يبذلها من أجل العقيدة أو الفكرة، وإنما من أجل مجده الشخصى، ومن أجل اسمه الذى لايزال يتضوأ بمغامراته فى الجاهلية، فإذا به يعتز بهذا الماضى اعتزازا بعيدا، يصور ذلك قوله:

وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت عنه الشجاعة بالأمس

ولا ريب فى أن ولاة أمور المسلمين قد عرفوا عنه هذا، فظلوا على تألفه واصطناعه، وإن كانت ثقتهم به غير متينة، لأنهم أيقنوا فيه أنه ربما لا يخلص فى نصرة الدين، ولكنه لا يفرط فى الإخلاص لنفسه ولاسمه، مهما كان ضعف إيمانه.

ولهذا نرى ابن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى النعمان بن مقرن فى نهاوند: بأن يستشيره فى كل أمور الحرب على ألا يوليه عملا[1]. ونراه فى القادسية وسعد يقسم الفيء فيصل عطاء الفارس ستة آلاف يقبضها عمرو، ثم يزيده سعد فى أهل البلاء خمسمائة، ولكنه لا يقنع، إذ تبقى بعد ذلك شيء كثير، رأى سعد أن يرسل به إلى المدينة ليسأل الخليفة عما يفعل به، فيرد عمر: «بأن رد على المسلمين الخمس، وأعط من لحق بك ولم يشهد الواقعة» ونفذ سعد أمر عمر، فبقى لديه ما اضطره أن يبعث إلى عمر يسأله عما يفعل به، فأمر عمر: بأن يوزع فى حملة القرآن. كل هذا وعمرو يتململ. وبينما سعد ينفذ أمر الخليفة إذ أتاه عمرو طامعا فى أن يكون له حظ مع حملة القرآن. وسأله سعد: ما معك من كتاب الله تعالى؟ فحك عمرو رأسه ثم أجاب بعد لحظات: إنى أسلمت باليمن ثم غزوت، فشغلت عن حفظ القرآن، عند ذلك أبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيبا، فإذا عمرو يقول:

إذا قتلنا ولا يبكى لنا أحد قالت قريش: ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطى الدنانير[2]

(١) ذيل الأغانى ج١ ص١٤٤.

(٢) الأغانى ج١٤ ص٣٩.

وكتب سعد بهذا إلى عمر، فكتب عمر إليه: بأن يعطيه على بلائه، فأعطاه ألفى درهم.

وكان عمر بن الخطاب يثق بقدرته الحربية ثقة كبيرة، ويتجلى ذلك فى المقابلة التى تمت بينهما، حين أرسله إليه سعد بن أبى وقاص عقب القادسية وراح عمر يسأله عن أحوال المجاهدين، وعن سعد فى جنده فقال عمرو: هو لهم كالأب.. أعرابى فى نمرته، أسد فى تامورته، نبطى فى حبوته، يقسم بالسوية، ويعدل فى القضية، وينفر من السرية، وينقل إلينا حقنا كما تنقل الذرة، وكان سعد قد كتب إلى الخليفة يثنى على عمرو ويذكر بلاءه فقال عمر: «لشد ما تقرضتما الثناء» ثم أخذ يسأله عن الحرب: فقال عمرو: مرة المذاق إذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن ضعف فيها تلف، وهى كما يقول الشاعر:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا استعرت وشب ضرامها ... عادت عجوزا غير ذات خليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة للشم والتقبيل

فعاد عمر يسأله عن السلاح فقال عمرو: «الرمح أخوك، وربما خانك، والنبل منايا تخطئ وتصيب، والترس هو المجن، وعليه تدور الدوائر، والدرع مشغلة للفارس، متعبة للراجل، وإنها لحصن حصين». ثم سأله عن السيف فقال: «ثم قارعتك أمك عن الثكل». فقال عمر: «بل أمك قارعتك» فقال عمرو: «الحمى أضرعتني»[1]. وخرج عمرو والخليفة يعلوه بالدرة، ثم ما لبث أن قال عند منصرفه فى الطريق:

أتوعدنى كأنك ذو رعين ... بأنعم عيشة أو ذو نواس

فكم قد كان قبلك من مليك ... عظيم ظاهر الجبروت قاس

فأصبح أهله بادوا، وأمسى ... ينقل من أناس فى أناس

فلا يغررك ملكك كل ملك ... يصبر مذلة بعد الشماس[2]

---

(١) ابن قتيبة ج١ ص٣٣٣- ٣٣٤، البلاذرى ص٢٨٧- ٢٨٨.

(٢) مروج الذهب ج٢ ص٢١٧.

وتكشف الأبيات عن جاهلية فى نفسه. وتفيض الروايات بذكر بلاء عمرو وتفانيه فى الفتوح، مما يثبت بعد نظر أبى بكر يوم وهبه حياته، فكان عند حسن ظنه، فأبلى فى كل وقعة شهدها بلاء حسنا، شهد اليرموك، وقيل عنه يومها: إنه كان أشرف رجل برز، ذلك أنه خرج إليه علج فقتله، ثم آخر فقتله، وهكذا.. وانهزم الروم ولم يتوقف، وتبعهم حتى أفنى جمعا عظيما منهم. ولكن الرواسب الجاهلية تبرز فى سلوكه عندما ينصرف إلى خباء له فينزل ثم يدعو بالجفان، ويدعو من حوله، والناس يتساءلون عنه فيقال لهم: إنه عمرو بن معديكرب فارس اليمن[1] وبرغم أن عينه أصيبت يوم اليرموك فإن ذلك لم يثنه عن مواصلة الجهاد[2].

وتحول عمرو إلى العراق، فشهد مع أبى عبيد بن مسعود الثقفى وقعة الجسر[3]، ثم شهد مع سعد بن أبى وقاص القادسية. وبالطبع لا بد أن يكون قد شهد مع المثنى المعارك التى كانت بين الجسر والقادسية، وإن كنا لا نجد له أخبارا فيها ولا شعرا. وكتب عمر إلى سعد بالقادسية بأن يصدر عن مشورة عمرو فى الحرب[4]، وعده عمر بمقام ألف رجل[5]، وأخذ عمرو يباشر المعركة، ويمر بين صفوف المسلمين، يحمسهم ويدفعهم بنداءاته: «كونوا أسودا أشداء، فإن الفارس إذا ألقى رمحه تيس».. «ألزموا خراطيم الفيلة السيوف، فإنها ليس لها مقتل إلا خراطيمها» وكاد أن يقتل أكثر من مرة، إذ أصابته فجأة فى سية قوسه نشابة، فحمل على من رماه فطعنه ودق صلبه، ونزل إليه فأخذ سلبه[6].

ويروى: أنه حمل فى هذا اليوم وحده، وجعل يضرب الفرس حتى لحق به المسلمون، وقد أحدق به الأعداء وهو يضرب فيهم بسيفه، فنحوهم عنه[7]. كما يذكر:

---

(١) الإصابة ج٥ ص١٩.
(٢) نفس المرجع.
(٣) الاستيعاب ص٣٥٢.
(٤) أسد الغابة ج٤ ص١٣٤.
(٥) الإصابة ج٥ ص١٩.
(٦) نفس المرجع.
(٧) نفس المرجع.

أنه كانت له طريقة بارعة وعجيبة فى قتال الفرس، إذ يقاتل فارسا ثم يقتحم عن فرسه فيربط مقوده فى حقوه، فيقاتل آخر، وهكذا كان يفعل بالعدو الأفاعيل[1]. وأنه شد فى نفر من المسلمين يضربون خراطيم الفيلة حتى بلغوا رستم فضرب فيله فجذم عرقوبيه فسقط، وسقط رستم، وحمل على فرس، لو قتل بين نفر من الفرسان تنازعوا دمه، وقال عمرو فى ذلك ينسب هذا العمل إلى نفسه:

ألم بسلمى قبل أن تظعنا ... إن لنا من حبها ديدنا

قد علمت سلمى وجاراتها ... ما قطر الفارس إلا أنا

شككت بالرمح حيازيمه ... والخيل تعدو زيما بيننا[2]

وعجيب أن يفعل عمرو هذه الأفاعيل، وهو طاعن فى السن، حتى إنه يروى تجاوزه المائة فى القادسية، وما كان من ضخامة جثته، فكان آخر قومه فى عبور نهر القادسية، وفرسه تئن من ثقله[3].

وتروى بعض الروايات أنه قد استشهد بالقادسية. أو مات عطشا بها[4]، ولكن هذه الرواية لا تتفق وما يذكر متواترا عن بلائه فى نهاوند، وما كان من استشارته فى المؤتمر الذى عقده النعمان بن مقرن للتدبر فى إخراج الفرس من حصونهم، بناء على أمر الخليفة، الذى أرسل إلى النعمان: «بأن فى جندك عمرو بن معديكرب، وطليحة بن خويلد، فأحضرهما، وشاورهما فى أمر الحرب». ويذكر أنه كان له رأى صائب فى الخطة التى قررت، وعندما قتل النعمان، وتولى حذيفة تراجع المسلمون، ولكن عمرا ظل يقاتل فى أهل النجدات من المسلمين، إلى أن جاءه كمى القوم فاعتنقه عمرو وقتله، وأصيب بجراحة أثبتته، وفتح الله على المسلمين، فأخذ عمرو ينشد شعرا، يفخر فيه ببلائه وهو يحتضر، ودهمه الفالج أثناء ذلك فمات به، عند قرية تدعى «روذة» من قرى نهاوند، فرثاه أحد المسلمين بقوله:

---

(١) الأغانى ج١٤ ص٢٨.

(٢) الأغانى ج١٤ ص٢٩.

(٣) الأغانى ج١٤ ص٢٨.

لقد غادر الركبان حين تحملوا «بروذة» شخصا لا جبانا ولا عمرا

فقل لزبيد بل لمذحج كلها رزئتم أبا ثور قريع الوغى عمرا

فإن تجزعوا لا يغن ذلك عنكموا ولكن سلوا الرحمن يعقبكم صبرا[1]

وتذكر بعض الروايات: أن شاعرنا عمّر بعد نهاوند حتى شهد صفين، ومات فى عهد معاوية. ولكن هذه الرواية تبدو مدفوعة إلى المغالاة فى امتداد عمره، ولو صح أنه شهد القادسية وهو ابن مائة وعشر ــ كما يروى أبو عبيدة فإنه يكون قد مات وعمره قرن ونصف، والصحيح الذى يمكن أن يتفق وكثرة الروايات الموثوق بها أنه مات مفلوجا بروذة كما تقدم[2].

٢ ـ شعره فى الجاهلية

لسنا نعرف على وجه اليقين أو الظن الوقت الذى بدأ فيه عمرو الشعر، فإن شعره لا يدلنا على شيء من هذا، والروايات التى تروى عنه لا تتعرض لهذا الجانب، وكأنما وجد ــ هكذا ــ شاعرا.

وليس لعمرو ديوان يجمع أشعاره مرتبة، أو مؤرخة بمناسباتها، أو غير مرتبة ومؤرخة. وإنما نستطيع أن نعرف على وجه التقريب حدا فاصلا بين شعره فى الجاهلية وشعره فى الإسلام، وإن قابلتنا فى سبيل ذلك مشكلات، سببها: أن حياته قد ضخمت، بفعل الروايات التى كادت تجعل منه بطلا من أبطال الأساطير، بما حشد فيه من جوانب البطولة، وتصوير ما أوتى من قوة خارقة، وما جبل عليه من عبث وسبب ــ آخر ــ هو: تشابه حياته فى الجاهلية بحياته فى الإسلام، بما طبع عليه من حب شديد لنفسه واتخاذه منهاجا خاصا لحياته، غير متقيد فيه بشيء من تعاليم الإسلام.

وأول ما يطالعنا فى شعر عمرو لأول وهلة: قلة مجموع هذا الشعر، وحتمى أن يكون قد ضاع منه الكثير، فكونه زبيديا من أهل اليمن لا يبرر قلة شعره على هذه الصورة رغم ما يبدو فى طبعه من ثراء وخصب.

---

(١) أسد الغابة ج٤ ص١٣٤، الاستيعاب ص٣٥٢.

(٢) أسد الغابة ،ج ٤/ ١٣٤، الإصابة ج٥ / ٢٠، ابن قتيبة ج١ ص٢٣٤، الأغانى ج١٤/ ٣١، ذيل الأمالى ج١/ ١٤٤.

ومن شعره المشهور: عينيته التى مطلعها:

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

وهى من الشعر الذى غنى به وزيد فيه، لما فيها من عاطفة جياشة، وإن كانت حزينة تبلغ فى حزنها حد اليأس، وتطبعك لأول وهلة بصدق الشاعر مع نفسه وعواطفه، وتصريحه بحرج موقفه، دون مغالطة أو تزييف أو تلفيق للأعذار، فهو يصور الأزمة فى وجدانه على حقيقتها، ويدلى بأسفه الذى يهيب به ويؤرقه وقد هجع الناس، وأخته سبية استحلت، وهو لا يملك لها نجاة، فحولها فرسان أشداء، ويبلغ اليأس بنفسه مداه، فيلقى بخلاصة تجربته فى حكمة بالغة، وكأنه قد أراح نفسه من أزمتها:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع[1]

وهذا الصدق الشعورى الذى يتجلى فى هذه الأبيات يعيننا على تفهم شعره فى مواطن أخرى، يكون فيها صادقا مع نفسه، حتى ولو كان مفتخرا معتزا بقوته، ونعجب من هذا الصدق الشعورى وقد عرفنا عمرا يغالى فى حديثه عن نفسه، ويكذب فى ذلك متفاخرا، ولكننا نجده فى شعره صادقا فى وصف مشاعره.

قال فى أبى المرادى ـ وكان ادعى مساندته فى غزاة، وطالبه بنصيبه، وتهدده بالقتل:

أعاذل شكتى بدنى ورمحي وكل مقلص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابي وأقرح عاتقى ثقل الزناد
تمنانى ليلقانى أبي وددت وأينما منى مرادي
ولو لاقيتنى ومعى سلاحي تكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
تمنانى وسابغتى دلاص كأن قتيرها حلق الجراد

(١) الأغانى ج١٤ ص٣١.

وسيفى كان من عهد ابن صد ... تخيره الفتى من قوم عاد

ورمحى العنبرى تخال فيه ... سنانا مثل مقباس الزناد

وعجلزة يزل اللبد عنها ... أمر سراتها حلق الجياد

إذا ضربت سمعت لها أزيزا ... كوقع القطر فى الأدم الجلاد

إذًا لوجدت خالك غير نكس ... ولا متعلما قبل الوجاد

يقلب للأمور شرنبثات ... بأظفار مغارزها حداد[1]

فكل سلاحه بدن ورمح وفرس عظيمة مطواع، وقد أفنى شبابه على هذه الصورة، حتى قرّح الزناد كاهله، وقد تمناه أبى ليقتله، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، ولو لاقاه لعجز عن مواجهته، حتى يأكل الحقد قلبه، وينكشف شحمه عما به من الحقد، وهو لم يصنع شيئا يستوجب هذا الوعيد، وإنما أراد أن يمن عليه، فهل يكون جزاؤه التهديد بالقتل وهل تدبر أبى أمره وعرف من هو الذى يتوعده ويتهدده إنه فارس ذو درع حصينة واسعة براقة ملساء، تشبه مساميرها حلق الجراد، وسيف عريق ورمح عنبرية ذات أسنة نارية، وفرس قوية مدربة، ولو قابله أبى لما وجده دنيئا، ولا ساقطا ولا ضعيفا، وإنما هو قوى قادر ماهر، لا يعبأ بالملمات. وتروى هذه الأبيات على أنه قالها لأخته، التى عيرته لإبطائه فى الثأر لأخيه عبدالله، ولكن الأبيات نفسها لا توحى بهذا، بدليل قوله:

إذًا لوجدت خالك غير نكس ... ولا متعلما قبل الوجاد

ويبقى بعد حلم القوم حلمي ... ويفنى قبل زاد القوم زادي

فمن ذا عاذرى من ذى سفاه ... يرود بنفسه منى المرادي[2]

ويتمتع كل شعره الجاهلى بصفة الصدق، الممتزج بحرارة التعبير المتدفق البعيد عن المغالاة، ويذهب كله بلا استثناء فى الاعتزاز بمهارته الحربية، والفخر بشجاعته، ووصف تأهبه للحرب.

(١) الأغانى ج١٤، ص٣٢.

(٢) الإصابة ج٥/ ٢١.

وتحيط بشعره غالبا مشكلات فى دوافع القصيد ومناسبته. فتروى روايات مختلفة فى ظروف كل قصيدة، فمثلا تروى له قصيدة فى انثوائه لقاء النبى ﷺ، ومخالفة قيس ابن مكشوح المرادى عن رأيه حيث يقول:

أمرتك يوم ذى صنعاء أمرا بينا رشده

أمرتك باتقاء الله تأتيه وتتعده

فكنت كذى الحمير غرة من إيره وتده[1]

وجاء فى رواية أخرى: أنه قال هذه القصيدة لولده، وأن عمرا قد عرض نفسه ذات مرة على امرأة من كندة فأخبرته: أنها زوجة، ووصفت له زوجها فتابعها، حتى لقى زوجها فقتله، واقترن بها، وطلب إليها أن تسمى ابنها منه الخزر. ولما شب الخزر راح يتعرف إلى أبيه، ودفعه قوم من صنعاء إلى أن يحارب أباه، فسار إليه فى جمع منهم وشد على أبيه، لكنه قتله وقال:

تمنّانى ليقتلنى وأنت لذاك معتمده

فلو لاقيتم فرسى وفوق سراته أسده

إذاً للقيتم شثن البراثن نابيا كيده

ظلوم الشرك فيما أعلقت أظفاره ويده

يلوث القرن إذا لاقاه يوما ثم يضطهده

يزيف كما يزيف الفحل فوق شئونه زبده

ويذبب عن مشافره البعوض ممنعا بلده

ولو أبصرت ما جمعت فوق الورد تزهده

رأيت مخاضة زغفا وتركا مبهما سرده

وصمصاما بكفى لا يذوق الماء من يرده

شمائل جده وكذاك أشبه والدا ولده

---

(١) الأغانى ١٤/ ٢٥.

أمــرتك يوم ذى صنعـــا أمـــرا بينا رشـــده
فـعـــال الخـيـر تأتـيـه فـتـــفـعله وتـتـــعـده
فكنت كـذى الحـمـير غـره من عـيـره وتده
ولو أبصـرت والبـصـر المبين قل من يجـده
إذًا لعلـمت أن أباك ليث فـــوقـــه لبــده[1]

وواضح: أن القصيدة لا عـلاقة لها بإسلامه، فهى جاهـلية، وتتحدث عن هذا الموقف الذى وقفـه منه ولده، وواضح أيضا أن قـوله: «فعال الخـير» أنسب للسـياق عن الرواية التى يقول فيهـا: «اتقاء الله»، فإن عمرا أبعد إنســان عن هذا القول. وهو يشير: إلى أن الحديث موجه إلى ابنه فى غير موضع فـى الأبيات، حينما يقول: إن شمائله هى شمائل جد ابنه، وهكذا أشبه والدا ولده. وعندما يقول له فى نهاية القصيدة: إذا لعلمت أن أباك. .

وهذا الخلط بين شعـره الجاهلى والإسلامـى منه نجد له أمثلة كـثيرة فى شـعره، ولكن أهم هذه القصائد ما يختلط من شعره الجاهلى بشعره فى الفتوح خاصة.

إذ يروى: أن نونيته المطولة صدرت عنه فى الفتوح، ويصف فيها بلاءه فى القادسية ونهاوند، والقصيدة تجرى على هذا النمط:

لمن الديـار بروضـــة الـســـلان ... فـالرقمـتين فـجـانب الصمـان
لعـبت بهـا هـوج الرياح وبدلت ... بعـد الأنيس مـكانس الثيـوان
فكـأن مـــا أبقـين من آياتهـــا ... رقـم يـنـمق بـالاكـف يمـانـي
دار لعـمـرة إذ تريـك مـفلّجـا ... عـذب المذاقـــة واضح الألوان
خـضـرا يشـبـه ورده وبيـاضـه ... بالـثلج أو بمنـور القـحـــوان
وكـأن طعـم مـدامـة جـبـلية ... بالمسـك والكافـــور والريحـــان
والشـهـد شـيـب بماء ورد بارد ... منهـــا على المتنفس الـوهنان
وأغـر مصـقـولا وعينى جـؤذر ... ومـــقلدا كـمـــقلد الأدمـــان
سنت عليـه قـلائدا منظومـة ... بالشـذر واليـــاقـوت والمرجـان

(١) ديل الأمالى ج١ ص١٥١.

فالقصيدة تبدأ بذلك التقليد الجاهلى من بكاء الأطلال، ذلك التقليد الذى لا نجده فى واحدة من قصائد الفتوح على الإطلاق، ثم يثنى الشاعر بالغزل بمن تدعى «عمرة» غزلا حسيا محضا، يتحدث فيه عن طعم مذاقها، ويشبهه بمذاق الخمر على المسك والكافور والريحان، أو الشهد، وينتقل من فمها إلى عينيها، إلى جيدها.

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ما كان من أيام الحرب فى الجاهلية ذات يوم بين كندة وزبيد فيقول:

ولقد تعارفت الضباب وجعفر ... وبنو أبى بكر بنو الهصان
سيا على القعدات تخفق فوقهم ... رايات أبيض كالفنيق هجان
والأشعث الكندى حين سما لنا ... من حضرموت مجنب الذكران
قاد الجياد على وجاها شذبا ... قب البطون نواحل الأبدان
حتى إذا أسرى وأوب دوننا ... من حضرموت إلى قضيب يمان
أضحى وقد كانت عليه بلادنا ... محفوفة كحضيرة البستان
فدعا فسوّمها وأيقن أنه ... لا شك يوم تسالف وطعان
لما رأى الجمع المصبح خيله ... مبثوثة كحواسر العقبان
فزعوا إلى الحصن المذاكى عندهم ... وسط البيوت يردن فى الأرسان
خيل مربطة على أعلافها ... يقفين دون الحى بالألبان
وسعت نساؤهم بكل مفاضة ... جدلاء سابغة وبالأبدان
فقذفهن على كهول سادة ... وعلى شرامخة من الشبان
حتى إذا خفت الدعاءُ وصدعتْ ... قتلى كمنقعر من الغلان
نشدوا البقية وافتدوا من وقعنا ... بالركض فى الأدغال والقيعان
واستسلموا بعد القتال وإنما ... يترقبون ترقب الحملان
فأصيب فى تسعين من أشرافهم ... أسرى مصفدة إلى الأذقان
فشتا وقاظ رئيس كندة عندنا ... فى غير منقصة وغير هوان[1]

(١) ذيل الأمالى ج١ ص١٤٥.

فهذه مقدرة مذهلة فى الوصف القصصى، والسرد البارع، وفى صورة حركية، ترسم التفصيلات الدقيقة فى براعة تأخذ بالألباب، وتجعلنا نعتبره نواة صالحة للشعر الملحمى، الذى لم يتطور على مر العصور.

فقد بدأ بتصوير هذا التحالف بين الأعداء واتفاقهم، وكيف استقلوا تخفق فوق رءوسهم الرايات، وقد تجنب رئيسهم العلن، وسار متخفيا، حتى أنهكوا جيادهم من طول السرى والتأويب، من حضرموت إلى ديار الشاعر التى أحاطت بهم من كل جانب.

وهنا يدرك رئيس الكندة أن اليوم ظلم، فيبث خيله فى كل مكان، ويفتح أهل الحى أعينهم على هذا المشهد، فيهرعون إلى جيادهم المتأهبة دائما، يعينهم نساؤهم فى اتخاذ أهبتهم، ويهبن بهن أن يتولوا أمر هؤلاء المغيرين، وينشب القتال، فتفعل السيوف فعلها، إلى أن يخفت صوت الفرسان، وتتكشف المعركة عن قتلى كثيرين، غير من فر وافتدى نفسه بالركض بين الأدغال، وغير من أسر من الأشراف الذين بلغ عددهم التسعين، صفدوا حتى أذقانهم بالسلاسل، وعلى رأسهم رئيسهم الذى قضى الصيف والشتاء أسيرا فى ديار الشاعر، وإن لاقى من التكريم والإعزاز ما يشهد برفعة شأنهم.

وبعد ذلك نجد أبياتا عن القادسية وبلاء الشاعر وقومه فيها، تقول:

والقادسية حين زاحم رستم	كنا الحماة بهن كالأشطان
الضاربين بكل أبيض مخذم	والطاعنين مجامع الأضغان
ومضى ربيع بالجنود مشرقا	ينوى الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قرى السواد وفارس	والسهل والأجبال من مكران[1]

ولسنا نعرف بحق من هو ربيع الذى يشير إليه، فليس بين قواد المسلمين الذين استباحوا قرى السواد وفارس ومكران من يدعى بهذا الاسم، ولكننا نفضل رواية أخرى للبيتين الأخيرين، على هذا النمط الذى يقول:

---

(١) ذيل الأمالى ج١ ص١٤٥.

قوم همو ضربوا الجبابر إذ بغوا   بالمشرفية من بنى ساسان
حتى استبيح قرى السواد وفارس   والسهل والأجبال من مكران(١)

وعلى كلتا الروايتين يلاحظ الدارس مغايرة هذه الأبيات التى تتحدث عن القادسية فى صياغتها للقصيدة كلها، وعدم التساوق فى المعنى، فالقصيدة وحدة موضوعية قائمة بذاتها، منتهية بحكم صياغتها الفنية عندما انتهت إليه من تصوير المعركة وانتهائها بأسر أشرافها، ورئيسها الذى قاظ وشتا عندهم، ولا تحتمل هذه الأبيات التقريرية الأخيرة بحال.

ويقينا فالقصيدة بالصورة التى تروى بها مشتملة على هذه الأبيات، قد صنعت فى عصرين مختلفين، فى الجاهلية والإسلام بمعنى: أن الأبيات الأخيرة أضيفت فيما بعد الفتوح بفعل الرواة، شأنها فى ذلك شأن قصيدة ربيعة بن مقروم، وقصيدة عبدة بن الطبيب، ومن قبلهما حسان بن ثابت فى قصيدته الهمزية، التى تحدث فيها عن فتح مكة وذكر فيها الخمر.

وقصيدة عمرو جلى فيها طابعها الجاهلى، فى أسلوبها، ورصانتها، وقوة تماسكها، وتصويرها الدقيق، وسردها المتأنى، الذى يدل على روية وفسحة فى الوقت أتيحت للشاعر، مما لا يتيسر لتلك الأبيات الأخيرة فى القادسية، والتى يظهر فى تقريريتها وقصرها أنها صنعت فى ظروف قلقة، هى ظروف الفتوح.

وهكذا نستطيع أن نعدد الخصائص الفنية لشعره الجاهلى، وهى تنحصر فى نزوع الشاعر إلى الصدق الشعورى الدافق مع نفسه دون ما مبالغة، وفى قدرته القصصية الفائقة، ودقته فى التصوير، واقتداره على رسم الصور الحركية بمهارة، كل ذلك فى أسلوب قوى جزل، تحوطه عاطفة جياشة، وإن كان بعيدا عن التعلق بالصور الخيالية، ميالا إلى استعمال الصور المحسوسة للتعبير عن أفكاره وعواطفه.

وموضوعات شعره الجاهلى لا تخرج فى مجموعها عن الافتخار ببطولته وتصويره استعداده للحرب، ووصف بلائه فيها ووصف وأيام زبيد فى الجاهلية.

---

(١) ياقوت ج٤ ص٩١٤.

٣ ـ شعره فى الفتوح

وشعر عمرو فى الفتوح قليل جدا، لا يتجاوز عدة مقطعات قصيرة، وهذه ظاهرة عامة ينضوى تحتها شعر الشعراء القدامى، الذين اشتركوا فى الفتوح جميعها، فى قلة ما خلفوا من آثار فى شعر الفتح، وينضوى تحتها شعر الفتح كله فى قلة عدد الأبيات التى تحتويها المقطوعة.

ولا يطالع الدارس قصيدة واحدة فى شعر الفتح طال نفسها أو تعددت أغراضها ـ كقصائد الجاهلية ـ فلا ظروف القتال من جانب، ولا نفسية المقاتل من جانب آخر تتيحان امتداد نفس الشاعر، فتحولت القصائد من تم إلى مقطعات لاهثة، يصب فيها الشاعر عواطف اللحظة ومشاعرها فى سرعة خاطفة، كتلك التى صب فيها عمرو خبر قتله لرستم فى ثلاثة أبيات، اشتملت على: تزويد صاحبه بإقراء سلمى صاحبته تحيته، وأن يذكره عندها، ويذكر حبه لها، وأن ينقل إليها خبر قتله رستم وقصر هذا الشرف عليه وحده دون غيره. ثم يصف الطريقة التى فتك بها بهذا القائد. كل هذا فى تلك الأبيات القليلة التى تقول:

ألم بسلمى قبل أن تظعنا ... إن لنا من حبها ديدنا
قد علمت سلمى وجاراتها ... ما قطر الفارس إلا أنا
شككت بالرمح حيازيمه ... والخيل تعدو زيما بينا[1]

ولا ريب فى أن القارئ لهذه الأبيات يستشعر حرارة الشاعر وصدقه، هذه الخاصية التى انتقلت معه من شعره الجاهلى إلى شعره الإسلامي.

ولم يقتصر ذلك على الشعر فحسب، وإنما نجد صدقه هذا وحرارة تعبيره فى أبيات الرجز المفردة. وكان علج فى القادسية قد رماه بنشابة وقعت بين كتفيه فلم تنفذ من درعه الحصينة، فأخذ به يعتنقه، فسقطا معا على الأرض، وقتله عمرو وسلبه، ثم أخذ يعمل سيفه فى الفرس، فى حرارة تشبه حرارته فى تعبيره، عندما رأى الأعداء يتساقطون تحت وقع ضرباته، فصاح مغتبطا:

---

(١) الأغانى ج١٤ ص٢٨.

أنا أبو ثور وسيفى ذو النون　　أضربهم ضرب غلام مجنون

آل زبيد إنهم يموتون[1]

ويبلغ صدقه فى عواطفه حد الصراحة الساخرة التى واجه بها سعد بن أبى وقاص لما رفض أن يجعل له نصيبا بين حملة القرآن فقال له معرضا بما بين القحطانية وقريش، متهما قائده بمحاباة القرشيين، إذ قال له:

إذا قتلنا ولا يبكى لنا أحد　　قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ　　ولا سوية إذ تعطى الدنانير[2]

وغير هذه الأبيات القليلة، وما أشرنا إليه من أبياته فى القادسية، التى أضيفت إلى نونيته لا نعرف له شعرا فى الفتوح، برغم شهوده المعارك المهمة فى تاريخها، فقد شهد اليرموك والجسر، ولكننا لا نجد له شعرا فيهما، وكذلك لا نجد له شعرا فى نهاوند.

ويلاحظ الدارس: أن عمرا وغيره من الشعراء القدامى كانوا أبعد الشعراء الذين اشتركوا فى الفتوح عن التأثر بأية خصائص إسلامية فى شعرهم، إذا ماقارنا شعرهم بشعر غيرهم من الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح، فتغنوا بالمثل الإسلامية، وكان شعرهم معرضا للخصائص التى اكتسبها الشعر من الإسلام.

وهكذا يمكننا القول: بأن شعر عمرو لم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة التى عاشها فى الفتوح، وبرغم ضياع شعره فيما نعتقد فإنه لجلى أن شعره الإسلامى فى الفتوح لو كان وجد بتمامه لما افترق فى شيء عن شعره الجاهلى، وإنما هو استبدل بأيام زبيد أياما إسلامية، عبر فيها نفس التعبير الذى كان يعبر به عن غزوات قومه فى الجاهلية. ولم يتأثر شعره بالإسلام ولا بالفتوحات، كما لم تتأثر حياته ذاتها إلا بهذه التأثيرات العامة، التى تعرض لها كل شعر الفتوح، من انكماش القصيد، وسرعته، وتدفقه فى إيجاز وحرارة، فضلا عن صدقه الشعورى، وحرارة تعبيره، التى لازمت شعره فى الفتوح.

---

(١) الأغانى ج١٤ ص٢٨.

(٢) الأغانى ج١٤ ص١١.

الفصل الثالث

القعقاع بن عمرو التميمي

١ ـ حياته وخروجه للجهاد

هو خير نموذج لهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر، وإنه لمن النادر أن نصادف شاعرا مثله، له نفس خصائصه أو خصائص قريبة منها.

كانت حياته كلها هجرة فى سبيل الله ورسوله وفى طاعتهما، ويضعه بعض المصنفين فى آخر طبقة المخضرمين من الفرسان الشجعان[١]، لكننا لا نعرف شيئا واضحا عن جاهليته يفيد معرفة بشأنه وبماضيه، إذ تخلو جميع المصادر من أية إشارة إلى شيء من هذا القبيل. فلا نعرف له من ثم أدنى اهتمام بشيء قبل الإسلام، وليس له ماض ينميه ولا اسم يعتز به، ويعيش على الإخلاص له، ولا شيء ثمت إلا إسلامه وإيمانه القوى وعقيدته الراسخة، حتى ليخيل للدارس أن حياته لم تبدأ إلا بالإسلام.

وهكذا نجد جميع المصادر تخلو من الإشارة العابرة إلى مولده ونشأته، وإنما تبتدئ جميعها من نقطة واحدة، هى إسلامه، ذلك أنه الحقيقة الكبيرة البارزة والفاعلة فى حياته كلها.

فقد أسلم القعقاع، وكانت له صحبة[٢]، وشهد وفاة النبى ﷺ، وكان الذى نقل إلى المسلمين آنذاك نبأ اجتماع الأنصار على استخلاف سعد بن عبادة[٣]. وظاهر من هذه الروايات: أن القعقاع قد نشأ فى حجر النبى ﷺ وكنف صحابته فتى من فتيان المسلمين، الذين آمنوا بربهم وزادهم ربهم هدى، فتأدبوا بآداب الإسلام، وتعلموا فى مدرسة الرسول ﷺ، ورسخ اعتقادهم بما أعده الله للمؤمنين المجاهدين من عباده،

---

(١) المستطرف ج١ ص١٧٩.

(٢) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.

(٣) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.

فازدادوا بأسا، وامتلأوا شجاعة، فباعوا أنفسهم فى سبيل الله وفى طاعته، هكذا تعلموا فى مدرسة الوحى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد].

راح الفتى المؤمن فى هذا الجو يكتسب صفات الفارس الإسلامى، ويسأله رسول الله ﷺ ذات يوم: «ماذا أعددت للجهاد يا قعقاع؟» فيجيب: «طاعة الله ورسوله والخيل». فيقول الرسول ﷺ: «تلك الغاية»[1] فهذا جوابه للنبى لا يخرج عما تعلمه فى مدرسة الوحى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾﴾ [الصف] ولهذا حظى الفتى المؤمن بحب الصدر الأول من الصحابة، فكان لأبى بكر فيه ثقة بالغة ورأى حسن، حتى ليقول عنه: «لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل»[2]. وقد أرسله أبو بكر على رأس حملة لتأديب علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص، الذى كان ارتد فى حياة الرسول ﷺ وخرج على رأس كلاب وحلفائها، بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام، فلما قبض الرسول ﷺ أقبل مسرعا حتى عسكر فى بنى كعب مقدما رجلا ومؤخرا أخرى، وبلغ ذلك أبا بكر فبعث القعقاع وقال له: «سر حتى تغير على علقمة لعلك تأخذه لى أو تقتله، فاصنع ما عندك». وكان الفتى عند حسن ظن الخليفة. فإنه ما لبث حتى أغار على الماء الذى عليه علقمة، فاستبى نساءه وبناته وامرأته، وقدم بسبيه وبعلقمة أسيرا على خليفة رسول الله ﷺ[3].

---

(١) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.

(٢) الإصابة ج٥ ص٢٤٤، أسد الغابة ج٤ ص٢٠٧.

(٣) الأغانى (الساسى) ج١٥ ص٥٥- ٥٦.

وأخذت ثقة أبى بكر تزداد به وتعظم، وعندما استمده خالد بن الوليد عند منصرفه إلى العراق أمده به، فقيل له: أتمد رجلا انفض عنه جنده برجل؟ فأجاب أبو بكر: «لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع»[1].

وقد أيدت الحوادث ثقة أبى بكر، فلم يهزم جيش كان فيه القعقاع خلال الفتوح فى العراق والشام. فقد كان صمام أمن المسلمين فى كل معركة اشترك فيها، وإن لم يكن قائدها، إذ يكون المسلمون أقرب ما يكونون إلى الهزيمة فإذا به يلوح فى الأزمات فيبدل هزيمتهم نصرا مؤزرا، مثله مثل السهم الأخير فى الجعبة، وقد صدق حين قال عن نفسه فى هذا المعنى:

يدعون قعقاعا لكل كريهة فيجيب قعقاع دعاء الهاتف[2]

٢ ـ القعقاع فارس الفتوح

رافق القعقاع خالد بن الوليد فى فتح العراق، إلى أن فصل معه إلى الشام ثم كان على مقدمة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، الذى قاد جيش العراق وعاد به إلى القادسية. وغزا بعد ذلك مع سعد بن أبى وقاص، والنعمان بن مقرن فى نهاوند. ولا نسمع عنه شيئا بعد هذا فى الفتوح.

وقد أبلى القعقاع بلاء رائعا فى المعارك التى اشترك فيها، ويكاد بلاؤه يصور ملحمة رائعة، تضعه فى زمرة الفاتحين المعدودين فى تاريخ الحروب قاطبة، وأكاد أتصوره فتى قويا ليس بضخم الجثة، بل أميل إلى النحول. عيناه واسعتان تبرقان بذكاء حاد، عريض الجبهة، كثيف الحاجبين، يرتسم على وجهه ما يعبر عن القسوة والصرامة، مقطب الجبين، مفكرا مطرقا فى أغلب أوقاته، يتبع قائده المظفر خالد بن الوليد، ويتابعه ويتأثر به، حتى ليكتسب منه صفات: الجرأة، والمبادرة، وكثيرا من خدع الحرب. وفى أول التقاء بين خالد والفرس ــ بقيادة هرمز عند الحفير ــ يفقد خالد حكمته أمام تحدى القائد الفارسى له، عندما دعاه للنزال فيرمى إليه بنفسه، وبينما هما يختلفان ضربتين احتضنه خالد يريد قتله، فإذا بأهل فارس يغتنمونها فيشدون يريدون قتل خالد وإنقاذ

(١) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.

(٢) الإصابة ج٥ / ٢٤٥.

قائدهم من بين يديه فإذا بظل القائد «القعقاع» يخرج من بين الصفوف فيحمل عليهم حملة عنيفة مفاجئة، ويهزمهم هزيمة نكراء[1].

واشترك القعقاع مع خالد فى فتح الحيرة، ولما فصل خالد إلى الأنبار فى طريقه إلى دومة الجندل لم يجد بين أمرائه أحدا خيرا من القعقاع، فخلفه على الحيرة ولم يكد خالد يرتحل حتى ثار العراق وكذلك فعل أهل الحيرة ظانين أن الحظ واتاهم، وسرعان ما راح القعقاع يدافع بنى تغلب ــ الموتورين لمقتل عقة ــ وبعث بالأنباء إلى خالد، فطار من دومة إلى الحيرة، حيث خلف عليها عياضا، وأطلق القعقاع إلى الحصيد، وقد أمده من روحه بقوة على قوته، ولم يثبت له العجم، فقتل قائدهم، وفر جيشهم، وفر الفالة إلى الخنافس، فتابعهم، ففروا. وفى المصيخ: تواعد خالد والقعقاع وأبو ليلى بن فدكى حيث ملأوا الفضاء بجثث القتلى.

وعندما أمر أبو بكر خالدا بالتوجه إلى الشام ضن خالد بالقعقاع، فرفض أن يتركه للمثنى[2]. وفى الشام: أبلى القعقاع فى كل المعارك التى شهدها بلاء حسنا. وكان على كردوس من كراديس القلب، يفعل أفاعيله بالروم حتى انتصر المسلمون[3]. وشهد مع خالد فتح دمشق، وتربص معه عند أسوارها، وقد اتخذ حبالا كهيئة السلالم، وعبرا مع نفر من شجعان المسلمين الخندق عائمين على القرب، وأثبتا حبالهما فى السور وتسلقا، ثم انحدرا، والمسلمون من خلفهما يتبعونهما، حتى فتحوا باب دمشق وتدفق إليها المسلمون. ثم شهد وقعة فحل حتى فتحت، وكان له فيها بلاء مذكور.

وبعد الفتح: سيره أبو عبيدة على مقدمة هاشم إلى العراق. وبينما كان المسلمون والفرس مشغولين ــ بدفن قتلاهم صباح يوم أغواث ــ كان القعقاع يسرع السير فى ألف من جند هاشم على مقربة من القادسية، وأعمل حيلته ليشد مقدمه عزائم المحاربين فى هذه الموقعة الخطيرة فقسم رجاله الألف إلى عشر فرق، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التى سبقتها على مدى البصر، وسار على رأس الفرقة الأولى، وبلغ سعدا

(١) البلاذرى / ٢٤٢.

(٢) الطبرى ج٤ ص٩٣ ٢.

(٣) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.

قبل استئناف القتال فبشر المسلمين بالمدد، وانطلق يتقدم الصفوف يستفتح القتال، قائلا للمسلمين اصنعوا كما أصنع، ونادى «من يبارز»؟ فخرج له من يقول: أنا بهمن جاذويه، فإذا بالقعقاع يصيح: يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر، وانقض عليه فأورده حتفه، فتنشط الناس وفعلوا كفعله، وكان كلما رأى فرقة من فرقه تتقدم كبر فكبر المسلمون، وهجموا، وهم يرون فعاله بالفرس وتدفق الجند فحملوا، والقعقاع يصيح: باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها.

واتصل القتال إلى منتصف الليل، حتى لم يعد أحد من الفريقين يرى الآخر، والقعقاع يزاحف الفرس حتى زاحفهم ثلاثين زحفا، وقتل فى كل زحف فارسا[1] حتى استحق في آخر هذا اليوم فرسا من عدة أفراس وسيوف أرسلها الخليفة لتقسم فى أهل النجدة والبلاء. وقد قام هو وبنو عمه بحيلة بارعة، إذ برقعوا إبلا وجللوها، منتهزين غياب الفيلة فى ذلك اليوم ــ لتقطع وضنها يوم أرماث ــ وكان للإبل فى هذا اليوم بلاء كبلاء الفيلة فى اليوم السابق.

ونام المسلمون والفرس ليلتهم، بينما أخذ القعقاع يمرب جنده طوال الليل إلى المكان الذى قدموا منه، على أن يقدموا بالطريقة ذاتها، فإن أدركهم هاشم وجاء بمن معه فذاك، وإلا جددوا للناس رجاء فى المدد، فزادهم هذا الرجاء إقداما.

ووقف الفارس الذكى عند الفجر فى المؤخرة يتطلع ناحية الصحراء، فلما بدأت خيله تقبل كبر وكبر الناس، وتبعهم جند هاشم يتلاحقون دراكا، ونشب القتال وفعلت الفيلة فعلها، ورأى سعد بأسها، وخشى أن تتكرر مقتلة بنى أسد، فأرسل إلى القعقاع وعاصم أخيه، وطلب إليهما أن يكفياه الفيل الأبيض ــ وكان بإزائها ــ فترجل القعقاع وأخوه ووضعا رمحيهما فى عينى الفيل، الذى تراجع من الألم، فطرح سائسه وولى مشفره، فضربه القعقاع بسيفه فاختلت صفوف الفرس، وحمى وطيس القتال. ولما كبر طليحة بأسفل المخاضة ارتاع أهل فارس، وظنوا جيوش المسلمين قد غدرت بهم، وظن المسلمون أن الفرس فتكوا برجالهم، وأغار عمرو بن معديكرب على جماعة من الفرس، فتقدموا زاحفين، وسقط صديق القعقاع «خالد بن يعمر التميمي» مجندلا فى

(١) الإصابة ج٥ / ٢٤٤.

دمائه، وكـان صادق الحملة على الأعـداء، فإذا به ينقلب وحشـا ضاريا، يطيح برءوس الفرس بسيفه من غير أن يستأذن سـعدا الذى راح يقول: «اللهم اغفرها له وانصره، فقد أذنت له وإن لم يستأذني»[1]. ولحقت بالقعقاع القبـائل، فحملت خلفه، وظلت أصوات الفرسان عـالية حتى تقدم الليل فخفـتت. وسيطرت قعقعة السـلاح على الأسماع، بات الجيشان يقـتتلان أعنف قتال وأقسـاه. والحرب تدور حول القعقاع وهو يرتجـز ويسير فى الناس قائلا: إن الدائرة بعد سـاعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعـة واحملوا، فإن النصر مع الصبر. حتى كان النصر، فتابع المنهزمين فى جنده يأسرون من نجا من القتل.

وها هو فى جند سـعد، وقـد وقف نهـر دجلة يحـول بينهم وبين المدائن، وهم ينظرون إلى تدافع مـياهه، ويأتى ببـعض الفرسـان يسألهم: كـيف العبور؟ فـدلوه على مخاضة فـى النهر تخاض إلى صلب الوادى، لكنه خشى عادية التـيار على جنده، فلما أتاه النبأ بأن يزدجـرد حمل خزائنه إلى حلوان جمع الجند، وراح يدعـوهم إلى العبور، وانتدب حامية تحمى الجند من ذوى البأس، وكان أول من انتدب عاصم بن عمرو ومعه ستـون نفرا، وهو يصـرخ فيهم: «ومـا كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كـتابا مـؤجلا» واقتحم النهر وزمـلاؤه معه. فلما رأى القعقـاع الفرسان يتقدمون فى سبـحهم مد بصره فرأى الفـرس يتهيئـون للقائهم فسـرعان ما انتدب سـتمائة دفع بهم إلى النهـر، والفرس مذهولون يقولون: إنكم لا تقاتلون إنسا وبعـد أن دخل المسلمون المدينة طارد القعقاع بن عمرو فارسـيا فقتله وأخذ منه عيبـتين، فيهما أسيـاف وأدراع لكسرى، وهرقل، ولخاقان الترك، وملوك آخرين[2].

ثم ها هو بعد ذلك: يعينه الخليفـة عمر باسمه على مقدمة هاشم بن عـتبة ليأتى جلولاء، وقد تحصن الفرس بهـا مستميتين فى الدفاع عنها، فحـاصرها المسلمون ثمانين يومـا، والأمداد تأتى إليـهم من المدائن، وتأتى إلى الفـرس من جلولاء، وكان الفـرس يخرجون ليزاحفوا المسلمين متى شاءوا ثم يعودون إلى حصونهم منهزمين. وأيقن الفرس أنهم سائرون إلى الهزيمة لـو استمر الأمر هكذا، ورأوا أن يبـاغتوا المسلمين. وذات يوم

(١) الطبرى ج٥ ص٢٢٣٢.

(٢) الإصابة ج٥ ص٢٤٥.

باغتوهم صباحا بأهوال الرماح حتى نفد النشاب من الفريقين، وصلى المسلمون الظهر إيماء، ووقف القعقاع يخطب فى جنده: أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون؟ قالوا: نعم: إنا كالون وهم مريحون. قال القائد الذى لا يعرف إلا النصر: بل إنا حاملون عليهم ومجدون فى طلبهم حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم، وحمل فحمل المسلمون. ورأى القعقاع الناس يتحاجزون لإقبال الليل فنادى ــ وقد دبر فى نفسه أمرا ــ «أين أيها المسلمون، هذا أميركم على باب خندقهم فأقبلوا عليه، فحملوا على الخندق، وهم يظنون هاشما بالخندق، فاقتتلوا قتالا أشبه بليلة الهرير، فلما انتهوا إلى باب الخندق لم يجدوا إلا القعقاع[1]، ورأوا الفرس ينهزمون أمامهم، ويحول الخندق بينهم وبين الارتداد إلى المدينة، فأخذهم المسلمون حتى قتل منهم مائة ألف، وفر من بقى إلى حلوان. فأتبعهم القعقاع فأدرك مهران فقتله، وفر الفيرزان إلى حلوان ينهب الأرض، ليخبر يزدجرد بهزيمة جلولاء، وانتهى إلى الري. وقدم القعقاع حلوان، حيث خرج إليه حماتها فقاتلوه قتالا عنيفا، ثم انهزموا أمامه[2]. ولما فكر عمر فى بناء محلة للمسلمين الذين لم يتلاءموا مع وخومة المدائن، استقدم سعد عبدالله بن المعتم والقعقاع بن عمرو وأمرهما بارتياد المكان الصالح لمقام العرب[3].

ثم ها هو كرة أخرى بالشام، يرسل به سعد بن أبى وقاص على رأس أربعة آلاف كأمر الخليفة عونا لأبى عبيدة، عندما حصرته الثورة فى حمص، إبان حملة قسطنطين، فانطلق فى فرسانه يغذون السير من الكوفة إلى حمص. وفى نفس الوقت كان عياض وعبدالله بن عتبان والوليد بن عقبة وسهيل بن عدى يعزلون القبائل التى سارت من الجزيرة تريد لقاء الروم حلفائهم، وأسقط فى أيدى الروم، وأخذهم المسلمون من جيش أبى عبيدة قبل وصول القعقاع بثلاثة أيام.

ثم نراه يقوم بدور كبير يوم نهاوند، إذ تحصن الفرس فى حصن لهم وجعلوا يترقبون، وطال حصار المسلمين حتى عظم الضيق، فعقد النعمان بن مقرن مؤتمرا قرر أن

---

(١) الطبرى ج٥ ص٢٤٥٩.

(٢) ياقوت ج٢ ص٣١٧.

(٣) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٨٤، ٢٤٨٥.

يبعث المسلمون خيلا تحدق بالأعداء فترميهم، لينشبوا القتال ويثيروا الفرس للخروج، فإذا استثيروا وخرجوا تقهقرت خيل المسلمين استطرادا، حتى يطمعوا الفرس فى هزيمتهم، فيرتد المسلمون فيحصرونهم ويأخذونهم على وجوههم. وضعت الخطة، ولكن من الفارس الباسل الذى ينفذها بنجاح، دون أن يكون تقهقره مؤديا إلى الهزيمة فعلا لا افتعالا؟ هناك القائد وأخواه، وحذيفة، وعمرو بن معديكرب، وطليحة.. وغيرهم، ولكن النعمان يتندب القعقاع ليذهب إلى ظاهر المدينة لينفذ خطته.

وأطاع الجندى الباسل، فتقدم فرمى المدينة بالنبل. وأظهر العزم على اقتحام الأسوار، وأبدى من ضروب البأس ما جعل الفرس ينهضون إليه ليصدوا هجومه. وأثار المسلمون حماسة عدوهم ــ بقتلهم كل من يبرز إليهم ــ فخرجوا، ورأوا جند القعقاع قلة فاغتبطوا واجتازوا الأسوار والجند يقاتلون المسلمين، وثبت لهم القعقاع زمنا حتى لا تنكشف حيلته، ثم تظاهر بالهزيمة وولى بجنده، مدبرا أمامهم، فتابع القعقاع فراره ليبعد بهم عن المدينة، وعن مدى النبل، ورأى القعقاع الفرس يتابعونه ومعهم حسك الحديد ينقلونه أمامهم، ليضمنوا الحماية من كرة المسلمين فأمعن فى الفرار، وأمعن الفرس فى تعقبهم، وقد تيقنوا من هزيمة المسلمين، فتركوا حسك الحديد وراءهم، وأسرعوا يطلبون المسلمين. وهنا انحاز القعقاع إلى جند النعمان وثبت فى مواجهتهم، وتراجع الفرس يتفكرون فى المكيدة. واستحث الأمراء قائدهم أن يأمر بالهجوم، ولكنه انتظر وحبس جنده عن الفرس، ولم ينجد القعقاع، فأقبل الفرس يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات، وشكا الناس بعضهم إلى بعض، والنعمان يصبرهم منتظرا الزوال ومهب الرياح، كما كان يفعل ﷺ، وسار النعمان يحمل رايته يحض الجند ويحمسهم، ثم كبر وحمل، فتبعه المسلمون ينقضون كالعقبان، واشتد القتال، ولم يكن يسمع إلا صيحات الأبطال ووقع الحديد على الحديد. واستحرت الحرب فانهمرت الدماء، وأخذت الدواب تتزلق. وبينما النعمان على جواده استجاب الله دعاءه وأناله الشهادة، فزلق جواده فى الدماء فصرعه وجاءه نعيم أخوه فسجاه بثوبه، وأخذ اللواء فدفعه إلى حذيفة، ولكن حذيفة أقامه مقام أخيه، وأمره بإخفاء الخبر. وأقبل الليل والمسلمون يدفعون عدوهم أمامهم، حتى أصاب الفرس الإعياء فتراجعوا منهزمين، فإذا بالحسك فى انتظارهم مكانه

يوقف تراجعهم، فأرادوا الانحراف، فإذا أمامهم خندق عميق، أعماهم الخوف عنه وستره الظلام فهووا فيه بخيولهم، وهلك فيه ثمانون ألفا، غير ثلاثين ألفا لاقوا حتفهم فى المعركة وفوق الحسك.

وفر الفيرزان فيمن فر يطلب النجاة، فتبعه القعقاع وأدركه عند ثنية همذان، وكانت بعض الدواب تحمل عسلا فى هذه الثنية فسدت على القائد الهارب سبيله، فترجل يريد النجاة فى الجبل، فتبعه القعقاع وقتله، ويمم شطر همذان، حيث صالحه أميرها[1].

وبعد فتح الفتوح لا نعود نسمع شيئا عن هذا البطل فى الفتوح، إلا أن ابن الأثير يذكر: أنه سكن الكوفة، ثم كان مع على بن أبى طالب، فشهد معه الجمل وغيرها من حروبه. وقام بينه وبين طلحة والزبير بسفارة وكلمهما كلاما كاد يقرب به الناس إلى الصلح[2].

هذا هو بلاء القعقاع بن عمرو فارس الفتوح الإسلامية، فتى من فتيان الله، باع حياته خالصة له، وجاهد فى الله حق جهاده، واستمات فى نصرة دينه فى تفان مخلص، ومهارة فائقة، وذكاء نادر، وفدائية مؤمنة لا يعوقها شاغل خاص، ولا يعترضها قصد إلا إعلاء كلمة الله وحمل رسالته إلى أصقاع العالم، فلا غرو إذا دعوناه بفارس الفتح، ولا غرو إذا ما دعوناه بشاعر الفتح إذ استوى نضجه فى أتونه، ونمت شاعريته فى ظلاله، فصور أحداثه تصويرا دقيقا فى شعره، فكان شعره مرآة للأحداث التى صنعها بسيفه.

٣ـ القعقاع شاعر الفتوح

وكما لا تذكر الروايات شيئا عن حياته فى الجاهلية، فإنها لا تذكر شيئا عن شعره أو ما يفيد معرفة به قبل الإسلام، فمجموع شعره إسلامى، أو بعبارة أدق: ليس له شعر إلا فى الفتوح التى أنطقته بالشعر. وقد أسهم هذا إلى جانب وضوح حياته وبلائه

---

(١) الطبرى ج٥/ ص٢٦٢٦، ياقوت ج٤/ ص٨٢٧.

(٢) أسد الغابة ج٤ ص٢٠٧.

فى الفتوح فى تواتر شعره وازدياد الثقة بصحته جميعا، إذ يقترن شعره بحياته خطوة بخطوة، ويتفق مع الأحداث التاريخية اتفاقا تاما.

وعلى هذا فشعره يمكن أن يعد وثيقة تاريخية بالغة القيمة، فهو مرآة لأحداث الفتوح التى عاشها الشاعر الفارس وعاصرها، حيث تنعكس عليه جميع جوانبها، من تحركات وتحولات وقتال ونصر واستشهاد، ولم يحدث أن تحركت كتيبة من مكان إلى مكان، أو تحولت من ميدان إلى ميدان، ولا من معركة إلى معركة إلا وسجل شعره ذلك، حتى لتختلف الروايات التاريخية فى أمر الفتوح الأولى فى الشام، وشهود كتيبة خالد هذه الفتوح، فإذا بشعره يسجل الوقائع التى حدثت فى الشام مرتبة ترتيبا زمنيا ــ مبتدئا ــ بسقوط خالد على بنى غسان فى ديارهم، منتقلا إلى بصرى، حيث التقى بسائر جند المسلمين ــ ومنتهيا إلى اليرموك، فقال:

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفا فوق تلك المناخر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة ... فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر[1]

ولم يترك معركة اشترك فيها إلا وصورها فى شعره، مشيدا ببطولته وبطولة المسلمين، فعل ذلك فى الحفير، وفى الولجة، وفى الثنى، وفى الحيرة، وفى الحصيد، وفى الخنافس والمصيخ، وعند اليرموك، ودمشق، وفحل، وفى القادسية، والمدائن، وجلولاء، وحلوان، وأخيرا فى نهاوند.

ويكاد يكون القعقاع لهذا أكثر شعراء الفتوح شعرا وأغزرهم إنتاجا، فله فى كل موقعة من هذه المواقع مقطوعة أو أكثر.

وينصرف شعره كله فى الإشادة ببلائه وبلاء قومه، والإشادة ببطولات الفرسان من أصدقائه، ورثائهم، وتصوير قسوة المقاومة التى يلقونها من الفرس، وعرب القبائل والروم، والحوادث التى تقع فى أثناء المعارك، فضلا عن أرجازه التى كانت تهيب بالمسلمين أن يتقدموا للقاء أعدائهم. فهو يفخر بفعاله يوم نهاوند، حينما تعقب ركب الفيرزان وقتله عند ثنية العسل، ويذكر هتكه لبيوت الفرس، ومباغتتهم فى قراهم فيقول:

(١) ياقوت ج٤/ ص١٠١٥.

جذعت على الماهات فى ألف فارس ... بكل فتى من صلب فارس خادر
هتكت بيوت الفرس يوم لقيتها ... وما كل من يلقى الحروب بثائر
جست ركاب الفيرزان وجمعه ... على فتر من جرينا غير فاتر
هدمت بها الماهات والدرب بغتة ... إلى غاية أخرى الليالى الغوابر[1]

ويتناول هذه الوقعة فى مقطوعة أخرى: يصور فيها متابعته للفيرزان، وما كان من سقوط الفرس فى خندق نهاوند، المسمى وادى خرد، فيقول مفتخرا بصنيعه:

ويوم نهاوند شهدت فلم أحم ... وقد أحسنت فيه جميع القبائل
عشية ولىّ الفيرزان موايلا ... إلى جبل آب حذار القواصل
فأدركه منا أخو الهيج والندى ... فقطّره عند ازدحام العوامل
وأشلاؤهم فى وادى خرد مقيمة ... تنوبهم عبس الذئاب العواسل[2]

وقد تناول هذه المعركة كرة أخرى، مفتخرا بقومه الذين أبلوا معه فيها بلاء حسنا، وكأنه يدفع عنهم اتهاما بالتقصير، ويعدد فعالهم بالفرس يوم نهاوند فيقول:

رمى الله من ذم العشيرة سادرا ... بداهية تبيض منها المقادم
فدع عنك لومى لا تلمنى فإننى ... أحوط حريمى والعدو الموائم
فنحن وردنا فى نهاوند موردا ... صدرنا به والجمع حران داحم
ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا ... لشر ليال أنتجت للأعاجم
فنحن لهم بينا ونصل سجلها ... غداة نهاوند لإحدى الفطائم
ملأنا شعابا فى نهاوند منهم ... رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا ... فلم ينجه منها انفساح المخارم
ألا أبلغ أسيدا حيث سارت ويمت ... بما لقيت منا جموع الزمازم

(١) ياقوت ج٤ ص٤٠٥.
(٢) ياقوت ج٤/ ص٨٩٦.

غداة هـووا فى واى خرد فـأصبـحوا تعـودهم شـهب الـنسـور القـشـاعم

قـتلناهم حـتى مـلأنا شـعـابهم وقـد أنـعم اللهب الذى بالصـرائم[1]

ويصف أسلحة المسلمين فى هذه الواقعة التى أثار المسلمـون فيها الفرس بالرمى، ثم لجأوا إلى السيوف عندما خرجوا إليهم، فيقول مشيدا بالمسلمين:

هم هدمـوا الماهات بعـد اعـتـدالهـا بصـحن نهـاوند التـى قـد أمـرت

بـكل قـناة لـدنة بـرمـيـة إذا كـرهت لم تنثنى واسـتـمـرت

وأبيض مـن مـاء الحـديد مـهند وصـفـراء من تبـع إذا هى رنت[2]

وفى ليلة الهرير: رأى القعقاع صديقه العزيز خالد بن يعمر التميمى يدافع الفرس ويبلى بلاء الأبطال، فأشاد بصنيعه، وقال فى ذلك:

حضـض قومى مضـر حى بن يعـمر فللـه قـومى حين هزوا الـعـواليـا

ومـا خام عنهـا يوم سـارت جمـوعنا لأهل قـديس يمنعـون المـواليـا[3]

ولكن صـديقه لا يلبث أن يسـقط مجندلا، فـينطلق القعـقاع وكأنه «آشـيل» يرى صديقـه «باتروكلوس» صريعا، فيـحس الفرس بسيفـه مزاحفا، دون أن يأذن لـه سعد، ويقول ــ معبرا عن أحاسيسـه فى هذه اللحظة، وما انطوى عليه صدره من غيظ ورغبة فى الثأر:

سـقى الله يا خوصـاء قبـر ابن يعمـر إذا ارتحل الـغـار لـم يتـرحل

سـقى الله أرضـا حلهـا قـبـر خـالد ذهاب غـواد مـدجـنات تجلـجل

فـأقسـمت لا ينفك سـيـفى يحسـهم فـإن زحـل الأقـوام لم أتـزحل[4]

---

(١) ياقوت ج٤ ص٨٢٧، ٨٩٦.

(٢) ياقوت ج٤ ص٤٠٥.

(٣) الطبرى ج٥/ ص٢٣٢٦.

(٤) الطبرى ج٥ ص٢٢٣٠.

والقعقاع الفارس الذى يشيد ببلائه فى شعره لا يجد غضاضة فى الشهادة بقدرة أعدائه، وبلائهم فى الدفاع عن أرضهم، فيصور شجاعتهم وحمايتهم لبلادهم فيقول فيما كان من دفاع العرب الذين حشدهم الفرس بين الوجة وكثرتهم من بكر بن وائل:

ولم أر قوما مثل قوم رأيتهم ... على ولجات البر أحمى وأنجبا

وأقتل للرواس فى كل مجمع ... إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا[1]

وعندما يجتمع الفرس والروم على ملاقاة المسلمين بالفراض، يصور القعقاع التقاء هذا الحلف وإبادة المسلمين لهم حتى صرعوا كالأغنام، قال:

لقينا بالفراض جموع روم ... وفرس عمها طول السلام

أبدنا جمعهم لما التقينا ... وبيتنا بجمع بنى رزام

فما فتئت جنود السلم حتى ... رأينا القوم كالغنم السوام[2]

وفى يوم أغواث: قدم رسول من الخليفة بأربعة جياد وأربعة سيوف؛ لتقسم فى أهل النجدة والبلاء، فاستحق القعقاع جوادا لما قدم فى هذا اليوم فيذكر هذه المكافأة ويشيد ببطولته:

لم تعرف الخيل العراب سواءنا ... عشية أغواث بجنب القوادس

عشية رحنا بالرماح كأنها ... على القوم ألوان الطيور الرسارس[3]

وخلف القعقاع بعض أراجيز كان يهدر بها عند لقاء الفرس فى القادسية والروم فى اليرموك، ففى يوم اليرموك: كان على أحد كراديس القلب، يفعل بالروم الأفاعيل، ويجندل أبطالهم، وهو يرتجز بقوله:

يا ليتنى ألقاك فى الطراد ... قبل اعترام الجحفل الوراد

وأنت فى حلبتها الوراد[4]

---

(١) ياقوت ج٤ ص٩٣٦.

(٢) ياقوت ج٣ / ٨٩٤.

(٣) ياقوت ج١ ص٣٢١.

(٤) الطبرى ج٤ ص٢٠٩٧.

وفى القادسية ــ فى زحوفه الثلاثين يوم أغواث ــ كان يرتجز فى كل زحف يحمل فيه، من مثل قوله:

أزعجهم عمدا بها إزعاجا　　أطعن طعنا صائبا ثجاجا

أرجو به من جنة أفواجا[1]

وكانت آخر حملاته فى هذا اليوم تلك التى قتل فيها يزر جهر، فأنشد وهو يسقيه كأس حتفه:

حبوته جياشة بالنفس　　هدارة مثل شعاع الشمس

فى يوم أغواث فليل الفرس　　أنخس بالقوم أشد النخس

حتى تفيض معشرى ونفسى[2]

وكان رجزه بشيرا بالنصر، عندما تناهى صوته إلى سعد، وهو يقول:

نحن قتلنا معشرا وزائدا　　أربعة وخمسة وواحدا

تحسب فوق اللبد الأساودا　　حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربى واحترزت عامدا[3]

وهكذا ــ نرى شعر القعقاع يمتد فيشمل جميع أغراض الشعر فى هذا المقام، ويصور جوانب الحياة المختلفة فى الفتوح الإسلامية تصويرا دقيقا، يجعل الاعتماد على شعره أمرا ضروريا لكل من يعنى بدراسة الفتوح، ورسم صورة كاملة لجميع أقطارها.

وكذلك كان رجزه أحد العوامل المثيرة فى إقدامه وإقدام جنده فى هذه الحملات العديدة التى صممها وقادها فى اليرموك والقادسية.

ويكاد يكون شعره استغرق كل موضوعات الشعر التى خاض فيها شعر الفتح جميعه، اللهم إلا شعر الحنين، فلسنا نعرف له فى هذا الموضوع شيئا، وإن كنا نرجح أن سبب هذا وجود جموع كبيرة من أبناء عمومته معه فى حرب العراق، ووجود زوجته

(١) الطبرى ج٥ ص٢٣١١.

(٢) مروج الذهب ج٢ ص٢٠٦.

(٣) الطبرى ج٥ ص٢٣٣٣.

النخعية معه كذلك[1]. ويخلو شعره أيضا من أية دلالات على حياته الخاصة أو عواطفه الشخصية فى غير موضوعات الفتوح، وكأنما طرح الشاعر كل ما يمت إلى حياته الشخصية وراء ظهره، حينما استقبل حياة الطعان والجلاد. فإذا بنا لا نجد فى شعره شيئا يكشف لنا عن كنه شخصيته، إلا بما يميزها من الشجاعة والفروسية والفدائية المؤمنة، وتنعكس كل هذه الصفات فى افتخاره بنفسه وعشيرته وبجماعة المسلمين.

وهو فى هذا يشارك شعراء الفتوح جميعا، إذ لم يعد لهم فى حياتهم ما يعبرون عنه فى شعرهم إلا ما هو ماثل أمام أعينهم، وما تمتلئ به وجداناتهم من أحداث وانفعالات.

وشعره كما هو واضح شعر بسيط لا غموض فيه ولا تعمل ولا زخرفة، فكل قصد هذا الشعر أن ينفس عما فى وجدان صاحبه تنفيسا بسيطا، كاستجابة حرة وطليقة للعوامل النفسية التى تتلبس به.

ومن هنا نجد شعره متدفقا، دون قسر فى التعبير، أو تعسف فى التصوير، أو جفوة فى أفكاره، أو زخرف فى ألفاظه؛ ولهذا فهو شعر صادق لا تكلف فيه، حار لا زيف فيه، وهو ــ أولا وآخرا ــ صورة نفسية لذات صاحبه وأفكاره، فضلا عن كونه سجلا حافلا للفتوح التى أسهم فيها، وتاريخا أدبيا لفروسيته.

***

(١) الطبرى ج٥ ص٢٣٥٤.